التواصل الحضاري بين الحجاز وأرخبيل الملايو

رحلة الحاج عبدالماجد زين الدين

إلى الأراضي المقدسة نموذجًا

د. أحمد إبراهيم أبو شوك
قسم التاريخ والحضارة - الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

استطاع الإسلام عبر مسيرته الدعويَّة المتواصلة أن يحدث تحولاً عقديًا في عالم الملايو، تجلت معالمه الرئيسة في الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى، والإقرار بقدسية القرآن الكريم بوصفه أول كتاب سماوي حمل لشعوب الملايو الأمية ثوابت عقيدة التوحيد ذات الإطار الشمولي في تحديد ضوابط الحياة الإنسانية. ومن أهم الشعائر التعبدية التي أسهمت في توطين هذه القيم الحضارية في أراضي الأرخبيل هي شعيرة الحج، التي كانت وما زالت تُعدُّ بمثابة حلقة وصل جامعة، تجسد عطاؤها في توثيق عرى الترابط الروحي والمادي بين مهبط الوحي وعالم الملايو، والرحلة بين الطرفين كانت تمثل فصولاً مثيرة من التواصل الاجتماعي والتلاقح الثقافي في رحاب الهجرة في سبيل الله. أما أداء الشعيرة في حد ذاته فقد كان مزيجًا خلاقًا يجمع بين دفتيه مقاصد الإسلام المتمثلة في إقرار مبدأ التوحيد والإعلان الصريح بخاتمية الرسالة المحمدية، وفي أداء الصلوات الجامعة في الحرمين الشريفين، وفي بذل المال في مصارفه المشروعة. زد على ذلك أن تحلُّق المسلمين حول البيت العتيق كان يعني لجمهور الحجيج الملايوي تثمينًا حقيقيًا لقيمة التوحيد التي تسقط عندها التعددية والتنوع العرقي للشعوب الإسلامية، ويبقى

التوحد والتوحيد هما شعارا تلك التظاهرة الأممية التي تتجلى مفرداتها في نداء التلبية: "لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك... إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك".

وتثمينًا لماهية هذه الشعائر التعبدية ومقاصدها الشرعية المختلفة يحاول هذا البحث أن يعطي إطارًا عامًا لدور الحج في ترسيخ قيم التواصل الحضاري بين الحجاز وأرخبيل الملايو، ثم يقدم ترجمة عربية موثقة حواشيها للرحلة البديعة التي رسم معالمها الحاج عبدالماجد زين الدين الملايوي بعد أدائه شعيرتي الحج والعمرة عام ١٣٤١هـ/١٩٢٣م، ونشر وقائع هذه الرحلة في المجلة الملكية للجمعية الآسيوية⁽¹⁾ عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م بلغة إنجليزيةٍ رصينة، وعرض أدبي شائق. ولا تقل رحلة الحاج عبدالماجد إلى الأراضي المقدسة وملاحظاته الشخصية عن مآثر الحجاز أهمية عن رحلة ابن بطوطة (ت ٧٧٧هـ/١٣٧٥م) التي وثقها في "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وتماثل في طرافتها أيضًا رحلة عبدالله بن محمد العياشي (ت ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م) الموسومة بـ "ماء الموائد"، وتضاهي في موثوقيتها رحلة أمير البيان شكيب أرسلان (١٣٦٦هـ/١٩٤٦م) المدوَّنة في كتابه المشهور بـ "الارتسامات اللطاف". ولا يعني هذا الإطراء أن الرحلة الملايوية قد جمعت وأوعت كل مآثر الحج؛ لأن رسالة الحج إلى بيت الله الحرام رسالة متعددة الجوانب، ومتجددة الروح بتجدد الزمان والمكان، ولا يستطيع أي كاتب أن يوفيها حقها كاملاً غير منقوص. ولكن هذا التحفظ لا يمنعنا القول: إن رحلة الحاج عبدالماجد لها طعمٌ ومذاقٌ خاص؛ لأنها تعكس لنا جملة من قيم التواصل الحضاري بين الحجاز وعالم الملايو، وانعكاسات ذلك التواصل على الأصعدة الدينية والسياسية والاجتماعية.

---

(١) انظر:

Haji Abdul Majid, "A Malay's Pilgrimage to Mecca", Journal of the Branch of the Royal Asiatic Society, vol. iv, ii, PP. 69-87.

صدى شعيرة الحج في أرخبيل الملايو

كان أثر شعيرة الحج في بادئ أمره محصورًا في أهلية الدعاة الأوائل الذين حملوا لواء عقيدة التوحيد إلى أرخبيل الملايو، علمًا بأن العناصر الفاعلة من هذه النخبة كانت على صلة بالجزيرة العربية، إما انتسابًا إلى أرومة الرسول ﷺ، أو تأهيلاً معرفيًا ارتبط بأداء فريضة الحج وتحصيل العلم في أربطة الحرمين الشريفين. فلا شك أن هذه الصلة قد أكسبت هؤلاء الدعاة نوعًا من المكانة في نظر السكان المحليين الذين كانوا يكنون لهم الود والتقدير، اللذين يسَّرا انسياب نشاطهم الدعويّ، واستيعابهم اجتماعيًا في نسيج المجتمع المحلي(٢). وبهذه الكيفية أسهم الحجاز بطريق غير مباشر في تأسيس معالم البنية التحتية للمجتمع الملايوي على هدي ثوابت عقيدة التوحيد، وأثار أيضًا شعورًا صادقًا في أوساط بعض قطاعات المجتمع المستنيرة، التي أضحى يراودها حنين تواق إلى مهبط الوحي، إما تلبية لنداء الحج، أو استجابة لطلب العلم. بيد أن صعوبة المواصلات قبل اكتشاف السفن البخارية في القرن الثالث عشر للهجرة/ التاسع عشر للميلاد قد ضيّقت قاعدة المشاركة الشعبية، وفي الوقت نفسه أسهمت المخاطر التي كانت تحف رحلة العودة إلى الوطن الأم وتكاليفها الباهظة في استقرار نفر من الحجيج الملايوي بالأراضي المقدسة. وبفضل هذا الاستقرار مهّدت شعيرة الحج الطريق لتواصل حضاري أوسع نطاقًا، وأبلغ عمقًا بين مهبط الوحي وعالم الملايو، وذلك بقيام جالية ملايوية (جاوية) كبرى في مكة المكرمة، قوامها الذين آثروا البقاء بحثًا عن مصدر رزق أفضل، أو منهل علم يرضي

---

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: أحمد إبراهيم أبو شوك، "الشيخ أحمد محمد السوركتي (١٨٧٦-١٩٤٣م) رائد حركة الإصلاح والإرشاد في إندونيسيا"، التجديد: مجلة نصف سنوية تصدرها الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، العدد، ٢٠٠٠م، ص١١٨-١٢٢؛ "العرب والإسلام في جنوب شرق آسيا: قراءة تاريخية في مصادر التراث الإسلامي والأدبيات المعاصرة"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية: تصدرها جامعة الكويت، العدد ٨١، شتاء ٢٠٠٣م، ص٤١-٧٩.

طموحات الحادبين منهم. وبمرور الزمن أضحت الجالية الجاوية تمثل ثقلاً اجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا لا يُستهان به في مجتمع أم القرى، الذي كان يعج بالحركة الثقافية، وتتقاطع أطرافه اجتماعيًا في مزيج خلاق يعكس سمات الوحدة الإسلامية. ومن ثم نلحظ أن الملايويين (أو الجاوى) كغيرهم من المجموعات الوافدة إلى الأراضي المقدسة قد استطاعوا أن يتأقلموا تدريجيًا مع ذلك المجتمع المضيف. فمثلاً نجد أن الرجل منهم يتزوج من حرائر المكيين، وبفضل هذه المصاهرة يصبح مكيًا. ويظهر هذا التحوّل جليًا في الأجيال اللاحقة لجيل المحافظين (أعني الذين ولدوا وتربوا في أرخبيل الملايو)، التي تلاشت عندها معظم عادات الآباء وتقاليدهم، وأضحى سلوكها الاجتماعي مماثلاً لسلوك المجتمع المكي، الذي تميز بالزي العربي، والتواصل بلغة القرآن في محيط بنيته الإثنية. وفيما يخص الجانب الاقتصادي فقد اعتمد أفراد الجالية الملايوية في معاشهم على عائدات الخدمات التي كانوا يقدمونها إلى ضيوف الرحمن، القادمين من أطراف العالم الإسلامي المختلفة، وذلك من خلال عملهم في المحال التجارية مع أصحاب رؤوس الأموال من المكيين، الذين كانوا ينعتونهم بالإخلاص والاستقامة في السلوك، وبجانب ذلك كانوا يقومون بأعمال الطوافة والإرشاد في أوساط الحجاج الملايويين، ولا شك أن عائدات هذه الخدمات كانت تدر على المحترفين منهم عطاءً مجزيًا(٣).

---

(٣) انظر:

Deliar Noer, The Modernist Muslim Movement in Indonesia, 1900 - 1942, Singapore. Kuala Lumpur. London. New York: Oxford University Press, P. 25; .C. Snouck Hurgronje, Mekka in the Latter Part of the of the 19th Century: Daily Life, Customs and Learning, (trans. by J. H. Monahan, Leiden: E. J. Brill, 1970, PP. 92-215.

نُقل كتاب سنوك إلى اللغة العربية بوساطة علي عودة الشيوخ ومحمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، تحت عنوان: صفحات من تاريخ مكة، مكة: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ. وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على النسخة المترجمة.

أما القلة من أفراد الجالية الملايوية فقد آثرت الالتحاق بحلقات العلم والمعرفة والتتلمذ على علماء الحرم المكي، الذين عرفوا بإلمامهم الواسع بأدبيات المذهب الشافعي، صاحب النفوذ الراسخ في أرخبيل الملايو. وبفضل هذه الدراسة المنتظمة في الحرم الشريف استطاع هؤلاء الدارسون أن يقفوا على نفائس أدبيات هذا المذهب الشافعي، المتمثلة في "كتاب الأم"، و"عمدة السالك وعدة الناسك"، و"منهاج الطالبين"، و"إعانة الطالبين"، و"السراج الوهاج". ثم نقلوا معارفهم الفقهية الشافعية إلى وطنهم الأم بوضع شروحات وملخصات مترجمة لهذه الأدبيات النفيسة. ونذكر منها كتاب "الصراط المستقيم" للشيخ نور الدين الرانيري (ت ١٠٦٨هـ/١٦٥٧م)، الذي ألفه خلال فترة إقامته (١٠٤٧-١٠٥٤هـ/١٦٣٧-١٦٤٤م) في بلاط مملكة آشيه في شمال سومطرة، وظل هذا المصنف مرجعًا معتمدًا يُعوّل عليه في معالجة القضايا الفقهية في جنوب شرق آسيا(٤).

أما علم الكلام السني الذي وضع لبناته الإمام الأشعري (ت ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م)، وفصّل فيه القاضي الباقلاني (ت ٤٠٣هـ/١٠١٣م) والإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م)، فقد وصلت مصنفاته إلى أرخبيل الملايو في شكل شروحات ومختصرات مترجمة، جسدتها "العقائد النسفية" للإمام النسفي (ت ٥٣٧هـ/١١٤٢م) و"كتاب أم البراهين" لمحمد بن يوسف السنوسي (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م)، اللذان أضحيا يمثلان أساس الدراسات الكلامية المرتبطة بقضايا العقائد في أرخبيل الملايو(٥).

---

(٤) انظر:

H. M. J. Maier, "Malay and Indonesian Literature", in J. Espasito, ed., The Oxford Encyclopedia of Modern Islamic World, New York. Oxford: Oxford University Press, 1995, PP. 29-30.

A. H. Johns, "Islam in Southeast Asia: Problems of Perspective", in Ahmad Ibrahim and other, ed., Readings on Islam in Southeast Asia, Singapore, 1990,PP. 19-24.

(٥) محمد كمال حسن، التجديد، العدد الأول، يناير ١٩٩٧م، ص٥٠-٥١.

الحاج الملايوي: كسب في مهبط الوحي وعطاء في الأرخبيل

يرمز مصطلح "الحاج الملايوي" في هذه الدراسة المتواضعة إلى شخصيتين مختلفتين في الكسب المعرفي والعطاء الوظيفي تجاه مد جسور الترابط الحضاري بين مهبط الوحي وعالم الملايو، أحدهما هو ضيف الرحمن الذي كانت غايته أداء فريضة الحج ولوازمها، ثم العودة إلى الوطن الأم، وثانيهما هو طالب العلم الذي أدى الفريضة، وآثر البقاء بالأراضي المقدسة؛ بغية الدراسة، ثم العودة إلى الجذور في حلية عالم متبحر في أدبيات المذهب الشافعي، أو بغية الإقامة الدائمة في الحرم المكي من أجل التدريس والمُدارسة.

إن إطلاق لقب "حاج" - كما يرى المستشرق سنوك هورغرونية (١٢٧١-١٣٥٥هـ/ ١٨٥٥-١٩٣٦م) - على الشخص القادم من الأراضي المقدسة كان له وقع خاص في المجتمع الملايوي؛ لأن حامل هذا اللقب خلال إقامته بمكة المكرمة قد استطاع أن يجوّد معارفه التعبدية المتواضعة، ويلتقي رجال العلم المرموقين، ويحكي بعد عودته إلى وطنه الأم عن مشاهداته لمعالم الحضارة الإسلامية، وعن ثقافات الشعوب الأخرى التي التقاها في رحاب رحلة الحج. فلا عجب أن هذه التجربة كانت تجربة مفيدة بالنسبة للحاج نفسه؛ لأنه أصبح مميزًا بارتداء الزي العربي، ومجوِّدًا لأداء الفرائض والنوافل الملحقة بها، أضف إلى ذلك حضوره الدائم ومشاركته الفاعلة في تنظيم المحافل الإسلامية، مثل: تسمية المولود، وختان الذكور، ومراسم الزواج، وليلة القدر، ونزول القرآن، والإسراء والمعراج، ورأس السنة الهجرية(٦).

بذلك استطاع الحاج الملايوي أن يزوّد مجتمعه المحلي ببعض القيم الحضارية والمعارف الإسلامية التي اكتسبها خلال رحلة الحج. زد على ذلك أن الوضع المرموق الذي حصل عليه بين أهله وعشيرته قد

---

(٦) عبدالرزاق بن وان أحمد الندوي، المرجع السابق، ص٣٧-٤٢؛ عبدالوهاب بن الحاج كيا، المرجع السابق، ص١٣٧-١٤٢.

كان بمثابة حافز للقادرين منهم؛ ليشدوا الرحال إلى البيت العتيق، ويتزودوا بما تزود به الحجاج الذين سبقوهم في هذا الشأن. إلا أن لقب "حاج" بدأ في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة/ العشرين للميلاد يفقد بريقه ولمعانه، وذلك نسبة للزيادة المطّردة في أعداد الحجاج الملايويين، والاهتمام بالتدريس المنتظم للعلوم الدينية في مساجد أرخبيل الملايو ومدارسه الإسلامية، إضافة إلى الدور الإيجابي الذي قامت به حركات التجديد والإصلاح الإسلامية في مجال الدعوة والإرشاد في أوساط قطاعات المجتمع المحلي(٧).

أما طلاب العلم الذين آثروا البقاء في مكة المكرمة فقد أضحوا يمثلون جزءاً لا يتجزأ من نسيج مجتمعها الثقافي، وذلك بفضل عطائهم المتفرد في مجالي التعليم والإفتاء. فلا شك أن هذا الدور قد أكسب النابغين منهم تقديرًا واحترامًا خاصًا بين أفراد الجالية الجاوية وبقية فئات المجتمع المكي، وأهّلهم أيضًا ليكونوا عروة ثقافية تربط بين مهبط الوحي وعالم الملايو. فقد استطاعت الجمعية المحمدية أن تؤدي دورًا مهمًا في محاربة البدع والخرافات، ومنافحة الاستعمار الهولندي، وذلك من خلال عملها الدؤوب في مؤسساتها التعليمية والإصلاحية والدعوية التي انتظمت معظم مدن إندونيسيا وقُراها. وبجانب هذا النشاط المؤسسي للجميعة المحمدية ورصيفاتها الأخرى في إندونيسيا فقد برز تيار آخر يقوده نفر من العلماء الملايويين، الذين تدربوا في أربطة الحرم المكي، وأسهموا في تثقيف الوعي الإسلامي في بلادهم، ونذكر منهم الشيخ طاهر جلال الدين (١٢٨٥-١٣٧٥هـ/١٨٦٩-١٩٥٦م) والسيد أحمد الهادي (١٢٧٨-١٣٥٢هـ/ ١٨٦٢-١٩٣٤م) في ماليزيا(٨).

---

(٧) سنورك هورغرونية، المصدر السابق، ج٢، ص٦٢٩-٦٣٠.

(٨) انظر:

Deliar Noer, op. cit., PP. 33-34.

إلا أن هذا التواصل الحضاري بين مهبط الوحي وأرخبيل الملايو قد واجه انتقادات حادة من قادة العمل السياسي الاستعماري والمبشرين النصارى في جنوب شرق آسيا، تعللاً بأن شعيرة الحج قد أضحت تسهم بطريق غير مباشرة في إذكاء روح الثورة والتمرد على الأنظمة السياسية القائمة في المنطقة، وتعرقل أيضًا أنشطة المنظمات الكنسية. وفي هذا يقول المبشر بونسون:

"إن الجزيرة العربية لا تشكل فقط مركز توحد للحجاج الأتقياء، لكنها [مركز] يجتمع فيه السياسيون، وقادة الشعوب الإسلامية، ويناقشون قضاياهم وخططهم السياسية، ويتم هناك التشاور والتفاكر، ويُزوّد الحجاج العائدون بآليات الإثارة الدينية والتبليغ، التي يجب أن تعدّ ذات طبيعة مشكوك فيها تجاه الأمن والنظام الاجتماعي الخاص بالشعوب المسلمة المختلفة الخاضعة للسيطرة المسيحية"(٩).

وفي تعليق آخر يصب في ذات الاتجاه التحريضي ضد شعيرة الحج يصف المستشرق سنوك هورغرونية وضع الجالية الملايوية في مكة المكرمة ودورها في تمديد جسور التواصل مع أرخبيل الملايو بقوله:

"إن جميع الاعتبارات التي تنجم عن الحج تتضاءل في الأهمية أمام ازدهار المستوطنة الجاوية في مكة؛ إذ هنا يكمن قلب الحياة الدينية لأرخبيل جزر الهند الشرقية الذي ينبض بالدم الجديد ذي النشاط المتزايد إلى مختلف المناطق في إندونيسيا. فهنا في مكة تبدأ خيوط الطرق الصوفية المنتشرة في بلاد الجاوى. ومن هنا تؤخذ الكتب التي تستعمل في المدارس الدينية هناك. ومن خلال أقرباء الجاويين وأصدقائهم في مكة ينضم عدد من أبناء الجاوى ويسهمون في سلك الحياة الإسلامية...؛ لهذا فإن من الأهمية بمكان

---

(٩) انظر:

Ibid., P. 25.

أن تعرف الحكومة (الهولندية) ماذا يجري في مكة، وما هي الأمور التي تصدر عنها كل عام. وكيف يمكن الاستفادة من ذلك بطريقة ذكية تضمن دعم الحكومة، وعلى الأقل لا تسبب لها الأضرار والخسائر. ويمكننا ضبط الحياة الدينية في الملايو، وذلك بأخذ زمام المبادرة والتحكم بالموضوع وتوجيهه...، أو على الأقل جعل تأثير الحياة الدينية معتدلاً، وذلك إذا عرفنا التأثيرات الفكرية التي تنبعث من مكة قلب العالم الإسلامي"(١٠).

وفي ضوء هذين النصين يمكننا القول: إن شعيرة الحج كانت تمثل مصدر قلق بالنسبة للنفوذ الاستعماري الأوربي في أرخبيل الملايو، والشاهد في ذلك أن القائمين بأمر صياغة القرار السياسي والديني قد حاولوا أن يعرقلوا مسار هذه الشعيرة بشتى السبل والوسائل، فمثلاً نجدهم قد وضعوا سقفًا ماليًا يجب أن يستوفيه كل مواطن ينوي أداء فريضة الحج، وذلك انطلاقًا من علمهم المسبق بمحدودية دخول هؤلاء المواطنين، وتوهمهم بأن هذا الإجراء سيقلل من تدفق الحجيج السنوي إلى الأراضي المقدسة. والشاهد الآخر هو اعتمادهم على إخضاع الحجاج القادمين من الأراضي المقدسة إلى عدد من الاختبارات الصورية، التي بموجبها يمكن أن يُسمح لهم باستخدام لقب "حاج" داخل أرخبيل الملايو. فلا شك أن هذه الإجراءات كانت مجرد عراقيل سياسية قُصد بها التقليل من فاعلية هذه الشعيرة، لكنها جميعًا سقطت أمام عزيمة الحجاج الملايويين التي فاقت تصور المستعمر الأوربي. ومن ثم ظلت رحلة الحج، كما يصفها الحاج عبدالماجد بن الحاج زين الدين بأنها قناة تواصل حضاري دائم بين مهبط الوحي وعالم الملايو، ومن خلالها يتنسم الحاج الملايوي عبق الوحدة الإسلامية، ويشعر بعالمية الرسالة المحمدية، وسمو عطائها الروحي، وبلاغة خطابها الإنساني.

---

(١٠) سنوك هورغرونية، المصدر السابق، ج٢، ص٦٣٠-٦٣١.

مدخل لقراءة رحلة الحاج عبدالماجد إلى الأراضي المقدسة

لفهم مغزى رحلة الحاج عبدالماجد زين الدين إلى الأراضي المقدسة، والإفادة من القيم الثقافية والعقدية التي حملتها بين طياتها يجب أن نتوقف قليلاً عند شخصية الراوي، وطبيعة الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي الذي نشأ فيه، ثم بعد ذلك ننتقل إلى توثيق مشاهد الرحلة بوصفها ضربًا من أدبيات الحج والعمرة، المتجددة بتجدد الزمان، والمتفاعلة بقدسية المكان، والمتنوعة بتنوع التأهيل الثقافي للراوي ولجمهور الحجيج آنذاك.

أولاً: إن السؤال المحوري الذي يطرح نفسه في هذا المضمار يرتبط بماهية الحاج عبدالماجد بن زين الدين، مَنْ هو، ومِنْ أين أتى؟ الحاج عبدالماجد هو مثقف ماليزي من الطراز الأول، ومعلم ثبت أجاد فنون المهنة التي ينتمي إليها، وإداري حاذق أتقن مهارات عمله الإدراي الذي ارتبط بجمهور الحجيج الملايوي.

ولد عبدالماجد في ضاحية بودو بكوالالمبور عام ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م، من أسرة ذات جذور إندونيسية، وبدأ تعليمه الأولي بضاحية بودو عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م، ثم بعد ذلك التحق بمعهد فكتوريا للغة الإنجليزية بكوالالمبور، وبعد عامين من التحصيل في معهد فكتوريا، حصل بجدارة على شهادة كامبرج للمدارس الصغرى. وقد جعله هذا التفوق الأكاديمي متنازعًا بين أمرين: رغبته الذاتية في دراسة الطب في إحدى الجامعات البريطانية، وتطلعات الأسرة في الحصول على وظيفة في مؤسسات الحكومة الاستعمارية، علها تمده بالدعم المالي لمواصلة تعليمه الديني بمكة المكرمة.

وإقلاعًا عن تطلعات "الأنا" وتحقيقًا لرغبة الآخر (الأسرة) التحق عبدالماجد بوظيفة كاتب بحكومة ولاية سلانقور لمدة عامين. وفي عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٥م قرر الالتحاق بمدرسة الملايو (كلية الملايو لاحقًا)

بولاية براق، المدرسة التي أُسست لتدريب العاملين في الدولة، ولتعليم أبناء الذوات ووجهاء المجتمع. وبعد سنتين من الكد والمثابرة أحرز عبدالماجد نتيجة متفوقة على أقرانه، جعلت إدارة المدرسة تعينه أول معلم ماليزي في هذه المؤسسة التعليمية الناشئة، التي ترقى عبدالماجد في سلمها الوظيفي إلى أن عُين عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م أول مساعد مفتش ماليزي للتعليم.

وفي عام ١٣٤١هـ/١٩٢٣م طلب الأستاذ عبدالماجد السماح له بأداء فريضة الحج، فأذنت له السلطات البريطانية، وتكفلت أيضًا بمصروفات رحلته إلى الأراضي المقدسة، شريطة أن يقوم بإعداد تقرير عن الكيفية التي تُؤدى بها مناسك الحج على محيط الواقع، وعن وضع بعثة الحج الماليزية في الأراضي المقدسة. وحسب رأي وليم روف أن التقرير الذي أعدَّه الحاج عبدالماجد في هذا الشأن قد نال إعجاب المسؤولين البريطانيين، وجعلهم يعينونه في وظيفة أول ضابط ماليزي يشرف على بعثات الحجيج الملايويين في الأراضي المقدسة. ولقد شغل الحاج عبدالماجد هذا المنصب إلى أن تقاعد عن العمل عام ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م.

ولا شك أن الفترة التي قضاها في خدمة الحجيج الملايويين قد أسهمت في بلورة معارفه الإسلامية، وتفعيل نشاطه الدعوي في وطنه الأم، حيث أضحى داعية إسلاميًا نشطًا، وحلقة وصل فاعلة بين الثقافتين الغربية والشرقية.

وترسيخًا لهذا الدور نجده قد ألف عددًا من الإصدارات، أشهرها كتابه الموسوم بـ "عناصر السلام العالمي في الإسلام"، الذي ضاع إبان فترة الغزو الياباني لماليزيا، ومجلته الإنجليزية المعروفة بـ "النور الحديث"، التي كانت تهدف إلى ترقية عطاء المجتمع الماليزي المسلم. وكان الحاج عبدالماجد شخصية مرموقة، لها وزنها الثقافي

والاجتماعي والسياسي في المجتمع الماليزي، في الفترة التي سبقت نيل الاستقلال(١١).

ثانيًا: إن الرحلة في حد ذاتها تتضمن عرضًا وافيًا لرحلة الحاج عبدالماجد من سنغافورة إلى جدَّة، وتعكس بصدق جوانب كثيرة عن الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني والعمراني الذي كان سائدًا في الحجاز والملايو آنذاك. ومن ثم تُعدُّ هذه الرحلة مرجعًا مهمًا للمهتمين بالدراسات التاريخية، والجغرافية والاجتماعية، ومادة متميزة بطرافتها وحسن إمتاعها بالنسبة للقارئ غير المتخصص.

الرحلة تحمل بين طياتها بعض الأنماط الفكرية والقضايا الاعتقادية التي تعكس تأثير أدبيات المذاهب الفقهية

ثالثًا: إن الرحلة تحمل بين طياتها بعض الأنماط الفكرية والقضايا الاعتقادية التي تعكس تأثير أدبيات المذاهب الفقهية في الحجاز والملايو، لذا يجب على فقهاء هذا العصر وعلمائه ألاَّ يثمنوا هذه الرحلة من ناحية فقهية فحسب، بل يستحسن أن ينظروا إليها بصفتها سجلاً تاريخيًا يعكس واقع المجتمع المسلم في ذلك الزمان المحدد، والمكان الذي كان مثقلاً ببعض القيم المعرفية المتداولة في أوساط العامة. وإذا أخذنا في الحسبان هذا الواقع ببُعديه الزماني والمكاني نستطيع أن نقف بموضوعية على طبيعة المشكلات التي كانت تواجه المجتمعات المسلمة، ونضع الحلول المناسبة لها حاضرًا ومستقبلاً،

---

(١١) لمزيد من التفصيل عن سيرة الحاج عبدالماجد زين الدين انظر:

Haji Abdul Majid bin Zainduddin, The Wandering Thoughts of A Dying Man: the Life and Times of Haji Abdul Majid bin Zainuddin, (ed. William R. Roff), Kuala Lumpur: Oxford University Press, 1978; William R. Roff, "The Conduct of the Haj from Malay, and the First Malayan Pilgrimage Officer", in: Amin Sweeney, ed., Sari Terbitan Tak Berkala, Occasional Papers, no. 1, Institute of Malay Language, Literature and Culture, Kuala Lumpur: National University Press, 1975, PP. 81-112.

وذلك من خلال قراءة فاحصة تقارن بين أدبيات رحلة الحج في الماضي، والنقلة النوعية التي حققتها وزارة الحج في المملكة العربية السعودية في زماننا الحاضر.

رابعًا: أود أن ألفت انتباه القارئ الحصيف إلى أن العنوان الرئيس، والعناوين الجانبية الواردة في النص المترجم، والحواشي الملحقة ليست من صنعة المؤلف، بل وضعها المترجم لييسر متابعة حلقات هذه الرحلة الملايوية.

ترجمة النص

الحج إلى مكة هو الركن الخامس في الإسلام، وواجب ديني يجب أن يؤديه كل مسلم بالغ على الأقل مرة واحدة في حياته، وذلك بشرط أن يكون قادرًا على تحمُّل الرحلة. ويعني هذا بالنسبة للقروي الملايوي أن يكون في حوزته ما بين خمسمئة وستمئة جنيه إسترليني قبل أن يصبح أداء الحج واجبًا عليه، وبجانب ذلك ينبغي أن يكون خاليًا تمامًا من أية مسؤوليات تجاه أسرته؛ أي: أن يكون لديه في فترة غيابه مصادر رزق تغطي نفقات زوجه وأطفاله، إضافة للذين يعولهم (إنْ وجدوا)، وبالطبع يسقط عنه هذا الشرط إذا صحبهم معه. ولا يتوقع ذهاب النساء غير المتزوجات إلى الحج، إلا إذا كانت لديهن رفقة كافية من بنات جنسهن توفر لهن الحماية أثناء الرحلة، أو لديهن محارم من أهل عصبتهن. ولا يحتاج المرضى وكبار السن الذهاب للحج، لكن نسبتهم السنوية تقدر بنحو ٢٪ من جملة الحجيج. ويعزى هذا التشوق الواضح لسببين:

أولاً : أن هناك اعتقادًا في وسط المسلمين أن الموت في الحج شرف عظيم.

ثانيًا: أن هناك اعتقادًا أن المرض والضعف ليس من الضروري أن يؤديا إلى قصر الحياة، بل يموت الإنسان فقط عندما يأتي

أجله الذي لا يتقدم ولا يتأخر ثانية واحدة. وبالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون الرحلة إلى بيت الله يمكنهم أن يجدوا السلوى في قول رسول الله ﷺ: "إن أداء الفقير لصلاة الجمعة يساوي فضل أداء شعيرة الحج"(١٢).

الرحلة من سنغافورة أو بينانق إلى جدَّة

يبدأ موسم الحج في شهر رجب الذي لا يوافق دائمًا شهرًا محددًا في التقويم الميلادي؛ لأن السنة الهجرية فيها ثلاثمئة وأربعة وخمسين يومًا مقابل ثلاثمئة وخمسة وستين يومًا في السنة الميلادية. وبين شهر رجب وشهر ذي القعدة خمسة شهور، يبدأ فيها الحجاج رحلتهم من الملايو إلى مكة، وينتظرون هناك إلى مجيء الميقات المحدد في شهر ذي الحجة، حيث تؤدى شعيرة الحج في العاشر من ذي الحجة، الذي يعرف عند الملايو "بعيد الحج الأكبر"، فهو حقيقة يوم مقدس بالنسبة للحجاج في مكة.

لا يذهب الملايوي - كقاعدة عامة - في أية رحلة أكثر خطرًا مثل رحلة الذهاب إلى مكة، التي يَعبُر خلالها البحار دون أن يستشير مُنجِّمًا يعينه في معرفة اليوم المناسب لبداية الرحلة من وطنه الأم، تفاديًا لمخاطر الطريق وصعابه(١٣).

وقبل المغادرة يقوم الحاج بإعداد وليمة، وهي بجانب الدعاء الذي يقال بشأن ذهابه وعودته بالسلامة، تكون بمثابة محفل لمقابلة أصدقائه وأقربائه. وبعد ذلك يجهز الحاج احتياجاته للرحلة من سنغافورة(١٤)

---

(١٢) لا أثر لهذا الحديث في كتب السنة، ويبدو أنه حديث موضوع.

(١٣) التنجيم واستشارة المنجمين عن الأيام المناسبة للرحلة مذموم شرعًا، وليس له أصل.

(١٤) كانت سنغافورة مستعمرة بريطانية في جنوب جزيرة الملايو، وتمثل نهاية الخط البحري الواصل بين بريطانيا وجنوب شرق آسيا، ونقطة انطلاق للسفن المتوجهة إلى الشرق الأوسط وبقية أجزاء العالم. استقلت عن ماليزيا عام ١٩٦٥م، وأضحت دولة قائمة بذاتها، ومركزًا تجاريًا وثقافيًا نشطًا في جنوب شرق آسيا.

أو بينانق إلى جُدَّة(١٥) – ميناء مكة – وتستغرق الرحلة مدة تقدر بثلاثة عشر إلى سبعة عشر يومًا. ويحدد الحاج مسار رحلته من أي من الميناءين اللذين ذكرا آنفًا، وذلك عن طريق سماسرة الحج الذين يستقبلونه عند وصوله إلى محطة السكة الحديدية، ويوفرون له السكن اللازم إلى حين حضور سفينة الحجاج التي ستبحر به وبأمتعته عندما يأتي دوره.

وفي يوم السفر يجب أن يُحصن الحاج طبِّيًا قبل أن يصعد على متن السفينة، وهي مجرد احتياطات فرضتها السلطات للحد من انتشار داء الجدري. وينتشر هذا الداء وداء الكوليرا أحيانًا في أوساط الحجاج، وعليه يجب أن تزود كل سفينة تقل نحو ألف حاج أو أقل بطبيب، وتنحصر مهمة هؤلاء الأطباء في الحدِّ من انتشار مثل هذه الأمراض الوبائية على متن السفينة التي تقل الحجاج. وقبل أن تدخل السفن ميناء جُدَّة يجب أن ترسو في جزيرة كمران التي تبعد نحو خمسمئة ميل من جُدَّة، ثم يترجَّل كل حاج من على متن السفينة، ويذهب إلى مكاتب الحجر الصحي على الساحل، حتى لو كانت لديه شهادة براءة طبية تؤكد خلو السفينة من أي مرض، وتتمثل الخدمات التي يقدمها الحجر الصحي في: الحمام بالماء المالح، وتبخير ثياب الحجاج.

---

(١٥) هي مدينة ساحلية كبرى، تقع على البحر الأحمر، وتبعُد عن مكة المكرمة نحو (٨٠ كم). وهي مدينة تجارية عريقة، جعلها الخليفة عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خلفًا لميناء الشُّعبية. وفي هذا يقول الأستاذ السباعي: "وفي عهده حوَّل الميناء من الشُّعبية إلى جُدَّة، فقد كانت الشُّعبية ساحل مكة في عهد الجاهلية وصدر الإسلام، إلى أن تحول الميناء في عهده إلى جُدَّة؛ وذلك أن أهل مكة كلَّموه في أن يحول الساحل من الشُّعبية إلى جُدَّة، لقرب الأخيرة من مكة، فخرج عثمان، ورأى موضعها، وأمر بتحول الساحل إليها". وحاليًا تعد جُدَّة ميناء المملكة العربية السعودية الأول، وفيها مدينة الحجاج، وعدد من المراكز التجارية العالمية. أحمد السباعي، تأريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٩٩٩م، ج١، ص١٠١.

وترسو السفن على بُعد أربعة أو خمسة أميال من ميناء جُدَّة؛ لأن الميناء مملوء بالشعب المرجانية، ثم ينزل الحاج ومعه أمتعته من السفينة على قارب صغير (سَنْبك)، يقوده بحارة عرب إلى المرفأ، ثم بعد ذلك يترجَّل على رصيف ممتد من الساحل إلى البحر، وأمتعته على رصيف آخر. وينبغي أن يمر الحاج عبر بوابات عدة قبل أن يصل إلى مكان تسلُّم الأمتعة، ويُسأل في البوابة الأولى عن الجهة التي حضر منها، واسم شيخه. ويقصد بالشيخ مطوف الحاج في مكة(١٦). وفي مكة نحو ستمئة أو سبعمئة شيخ (أو مطوفٍ كما يسمونهم باللغة العربية)، ولابد أن يكون لكل حاج مطوف معين. ولهؤلاء المطوفين وكلاء في جُدَّة يهتمون بشؤون الحجاج خلال فترة إقامتهم هناك. وبعد أن يُصنَّف الحجاج في البوابة الأولى، يجب عليهم أن يذهبوا لتسلُّم أمتعتهم، بعد أن يفحصها ضباط الجمارك. وبعد التفتيش الجمركي ينقل الحمَّالون أو العربات التي تجرها الحمير كل الأمتعة إلى المخازن.

وصف مدينة جُدَّة

تظهر جُدَّة على مسافة من ساحل البحر، وهي مدينة جميلة جدًا، وفيها مبان شاهقة ومتعددة الطوابق تشبه الصناديق، وتختلف في أطوالها وسعتها، وهي موزعة في نظام بديع(١٧). وسقوف المباني المسطحة تترابط مع بعضها بعضا في شكل أعشاش للحمام،

---

(١٦) يذكر الأستاذ أحمد السباعي أن صناعة الطوافة ربما ابتدعت في عهد المماليك الشراكسة، بحكم جهلهم باللغة العربية، وميلهم إلى الأبهة والبذل، فكانوا يفضلون أن يعتمدوا على من يخدمهم، ويدلهم على مشاعر الحج، ويتلو أمامهم أدعيته. ويُذكر أن السلطان قايتباي حج عام ٨٨٤هـ، ولم يحج من ملوك الشراكسة غيره، وأن القاضي إبراهيم بن ظهيرة تقدم لتطويفه وتلقينه الأدعية، ولم يذكر المؤرخون مطوفًا قبل القاضي كان يلقن الحجاج في مكة. انظر أحمد السباعي، المرجع السابق، ج١، ص٣٨٣.

(١٧) يبدو أن الحاج عبدالماجد يقصد بالصناديق الرواشين التي كانت وما زالت تمثل أبرز فنون العمارة التقليدية في مدينة جُدَّة، وهي عبارة عن غرف صغيرة شبه معلقة، مصنوعة من أنواع مختلفة من الأخشاب، وكانت تستخدم وحدات منفصلة، =

وجميعها تطل على ساحل البحر الأحمر، وخلفها الصحراء العربية القاحلة. لكن الشوارع في داخل المدينة معفرة ومتسخة وضيقة، وليس بينها شارع مستقيم خلاف شارع أو شارعين. والشوارع غير مرقمة والمنازل كذلك، وجميعها تبدو للزائر متشابهة، والاحتمالات كبيرة في أن يضل الزائر طريقه إذا بَعُدَ عن مكان إقامته، أو لم يصحبه دليل. والشيء الآخر الذي يلحظه الزائر هي حشود الذباب المنتشرة في كل مكان، بما في ذلك المنازل والمتاجر، وفي المساء يأتي الناموس في حشود تقدر بالآلاف. وبين الذباب والناموس يكون الحاج المجهد المرهق قلق المضجع طوال عشرين ساعة من ساعات اليوم الأربع والعشرين. وفوق هذا وذاك فإن ماء الشرب الذي يدفع الحاج له بسخاء لم يكن على المستوى المطلوب. ومصادر المياه في جُدَّة لم ترق لمستوى المياه في المدن الكبرى في الملايو (أي: ماليزيا)، حيث توجد خزانات المياه العذبة التي تغذيها مساقط المياه المتدفقة من بعض الجبال والمرتفعات، وتوفر هذه الخزانات احتياجات السكان عن طريق خط أنابيب مياه رئيس أو أنابيب صغيرة في المنازل. ولا يوجد أيضًا أي نهر للمياه العذبة كما هي الحال في قرى الملايو. وفي جُدَّة أعداد كبيرة من الآبار خارج المدينة، تتغذى من مياه الأمطار لا المساقط المائية. ويستحسن أن نترك وصف المياه الراكدة في الآبار لأشهر عدة للخيال، لكن يجب أن نذكر أن المياه في كل مكان في الحجاز باردة ومنعشة، وبالأحرى مثل الماء المُثلَّج؛ لأنها تُبرَّد في دوارق فخارية تُستخدم بصورة واسعة في كل القطر.

= أو ترص رأسيًا فوق بعضها بعضًا، أو تصف أفقيًا، حسب احتياجات المنزل، وتقام على دعائم ناتئة (كوابيل) من الخشب، وتختلف في نوعيتها وحجمها تبعًا لإمكانات صاحب البيت وذوقه، وتوضع الدعامات الخشبية داخل جدران المبنى لحمل الرواشين، وبطبيعة الحال تظهر مهارات النجارين بشكل واضح في الأشغال الخشبية، مثل: القطاعات المتشابكة والطنف والأفاريز المائلة للسطح ومصاريع النوافذ. لمزيد من التفصيل انظر: حسني عبدالحافظ، "رواشين جُدَّة... وعبقرية الفن في الحضارة الإسلامية"، مجلة الحج والعمرة، العدد الحادي عشر، المحرم ١٤٢٤هـ/ مارس- أبريل ٢٠٠٣م، ص٤٠-٤٣.

كقاعدة عامة لا يقيم الحاج أكثر من يومين في جُدَّة؛ لأن توفير احتياجاته لمدة أطول يكلف المطوفين مصاعب جمة، لذا نجدهم يحثونه على الذهاب إلى مكة فور تحصيل الضرائب وفحص الجوازات. وقبل مغادرة جُدَّة، يجب أن يزور الحاج قبة حواء(١٨) التي تقع في الجزء الشمال الشرقي من المدينة، وطول القبة يقدر بستين ياردة، ويقال: إن هذا الارتفاع يمثل ثلث ارتفاع قامة الأم حواء. ويجد الحاج في هذا الموقع عددًا كبيرًا من الرجال والنساء والأطفال الذين يحلِّقون حوله طالبين الزكاة(١٩). ويُنصح الحاج أن يأخذ معه في هذه الزيارة كمية وافرة من الفئات النقدية الصغيرة؛ لأنه بخلاف ذلك سيجد صعوبة في السير نسبة لإلحاح الشحاذين المتطفلين.

الإعداد لأداء المناسك

يجب أن يغتسل الحاج ويتوضأ قبل مغادرة جُدَّة، ثم يرتدي الإحرام ويصلي ركعتين(٢٠). ويتكون إحرام الرجال من قطعتي نسيج أبيض لا تحاك أطرافهما، وتستخدم إحداهما غطاءً للرجلين منسدلا من الوسط، مثل: "السارنق"، والأخرى غطاءً للجزء الأعلى من الجسم، مثل: "الباجو". ويجب أن يكون الرأس حاسرًا، بمعنى ألا تُلبس عليه أية طاقية، إلا أن ذلك لا يمنع من استخدام شمسية تقي رأس الحاج من الشمس. وبالنسبة للقدمين فيمكن أن يُغطي باطنهما وتظل الأصابع مكشوفة، وإذا كان الحاج لا يفضل السير حافي القدمين يمكنه أن ينتعل شبطًا مكشوفًا. وبالنسبة للنساء فالأساس في الإحرام أن يغطي كل الجسم عدا الوجه، وأن تكون ملابس الإحرام بيضاء ومخيطة. وعندما يكون الحاج مرتديًا الإحرام يجب

---

(١٨) زيارة قبر حواء ليست من الشعائر الدينية الواجبة، بل من البدع التي يمارسها بعض الحجاج.

(١٩) يقصد الكاتب الصدقة؛ لأن الزكاة لا تصرف إلا حسب مصارفها الشرعية.

(٢٠) جدة ليست ميقاتًا يلبس الإحرام فيه، إلا لأهلها فقط.

أن يبعد نفسه عن كل دواعي الجماع، وأي تجاوز لهذه القاعدة يفضي إلى بطلان إحرامه، ولا يجوز له تقليم الأظافر، أو حلق الشعر من أي جزء في جسمه، وكفارة أي تجاوز لهذه القواعد تقضي التصدُّق بكمية محددة من الذرة أو عدد معين من الأغنام يدفعه الحاج إلى الفقراء(٢١).

رحلة المعاناة إلى مكة

تتم الرحلة إلى مكة عن طريق الجمَال، وهناك قاعدة عامة، هي أن يمتطي كل حاجين بعيرًا واحدًا. وَيُوضع على ظهر البعير سرج خشبي محشو بسعف النخيل (يُعرف بالشُقدف)(٢٢)، ويركب فيه كل حاج من جهة، ويستطيع أن يجلس الحاج أو ينام بكل ارتياح في الشُقدف، لكن لا يمكنه أن يمد رجليه بطلاقة عندما يكون مضطجعًا. ويكون وقت السفر ليلاً، وذلك لشدة حرارة الشمس في النهار، وعلى مدار السنة عدا شهور فصل الشتاء. وتستغرق الرحلة من جُدَّة إلى مكة ليلتين، والاستراحة بينهما ليومٍ كاملٍ في مكان

---

(٢١) كفارة تقليم الأظافر أو حلق الشعر أثناء الإحرام تكون بذبح شاة توزع على فقراء الحرم.

(٢٢) الشُقدف عبارة عن كرسيين بطول الشخص المتمدد متماثلين لا يستقل أحدهما بالوقوف دون الآخر، بحيث يصلحان للشد والربط على ظهر الجمل، ويعلو كل قسم قبة على شكل نصف دائرة من أعواد الشوحط القابل للثني، بحيث إذا ربط على ظهر الجمل بالحبال شكل القسمان قبة كاملة، يسدل عليها ستر للوقاية من الشمس نهارًا ومن البرد ليلاً. وعلى جانب كل شق من الشُقدف أجربة (مفردها جراب) يسمونها مخالي (مفردها مخلاة) يوضع فيها ما يحتاجه الراكب من مرافق. والشُقدف يستعمله اثنان واحد من كل جانب. وفي بعض الأحيان يتوسط بين هذين الراكبين راكب ثالث صغير السن على ظهر الجمل بين الشقين. وهذا المكان يسمى الوسك. لقد كانت الشقادف (مفردها شُقدف) تستعمل للتنقل بين جُدَّة ومكة والمدينة والطائف قبل ظهور وسائل المواصلات الحديثة. واستعمال الشقادف يبدو قديمًا فقد نوه به ابن جبير، وابن بطوطة، والعياشي في رحلاتهم إلى الحجاز. لمزيد من التفصيل انظر: حمد الجاسر، مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد)، الرياض: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٢٠٥، وأحمد السباعي، المرجع السابق، ج١، ٢٨٦-٢٨٧، وعبدالله محمد بكر، "الشقادف المكية... فنادق سياحية على ظهور الإبل"، مجلة الحج والعمرة، العدد السادس، شعبان ١٤٢٤هـ/ سبتمبر - أكتوبر ٢٠٠٣م، ص٧٠-٧٢.

يُعرف بـ "بحرة". وهذا المكان ليس سوى مجموعة من القطاطي، معظمها متاجر لبيع القهوة والشاي، إلا أن الحاج يستطيع أن يشتري أشياء أخرى، مثل: اللحم، والزبدة، والأرز، والدقيق، والسجائر. ولا يهتم الملايويون بأكل الأرز والمرق الذي يعرضه التجار العرب للبيع؛ لأنه ليس معدًا بالطريقة التي اعتادوا عليها، فلذا يفضلون أن يعُدوا طعامهم بأنفسهم، وقد علم البدو بذلك؛ فأضحوا يتجرون في حطب الوقود في موقف قوافل الملايو. وبالطبع فإن هذا الموقف كان بعيدًا من القرية، وبجانبه بعض الآبار التي يأخذ منها الحجاج حاجتهم من المياه، لكنها مياه مالحة.

وخلال الرحلة نفسها لم يكن الحجاج أحرارًا طلقاء من الصعاب التي تعترضهم؛ لأن الجَمَّالة يطرقون على الشقادف طول الليل ويوقظونهم بقولهم: "ميزان... ميزان"؛ أي: احفظوا الوزن على جنبتي الشُقدف، ويبدو أنهم يريدون من ذلك أن يتأكدوا إذا كان الحجاج يغطون في نوم عميق، وبذلك يمكنهم أن يأخذوا شيئًا من زادهم؛ لأن الأشياء القيمة تكون مربوطة في جسم الحاج. وربما يكون أكثر شيء مزعج للحاج هو عندما تعتريه صحوة من النوم أثناء الليل، ويجد قارورة مائه فارغة، والماء قد سرقه أحد الجَمَّالة (أو الهجانة). ولسبب أو آخر، يكون زائر الصحراء العربية في حالة عطش دائم، ويود أن يأخذ جرعة ماء على رأس كل عشرين دقيقة أو نحو ذلك. ومن ثمّ تخيل الغم والكدر الذي يعتري الحاج عندما يجد قارورته فارغة! وربما تكون هذه التجربة أشد قسوة إذا كان الحاج لا يعرف لغة البدو، وحاول أن يستجوبهم بلغته الملايوية عن السارق، فلا يجد منهم سوى السخرية والضحك عليه(٢٣).

---

(٢٣) هذا هو حال الحج قبل عهد الملك عبدالعزيز، وهذه شهادة معاصرة تعكس حالة الأمن السيئة التي كانت تعيشها المنطقة بالنسبة للحجاج، أما في عهد الملك عبدالعزيز - رحمه الله - أمنت الطرق، وساد الأمن البلاد.

وبعد القدوم إلى مكة، التي يصل إليها الحاج في الصباح الباكر من اليوم الثاني، يجب أن يقوم الحاج بأداء الطواف، والسعي، وحلق شعر رأسه، وذلك قبل أن يخلع الإحرام ويرتدي زيه العادي مرة أخرى. ويؤدي الطواف حول الكعبة، التي تقع في منتصف المسجد الحرام (مسجد مكة)، سبعة أشواطٍ، جاعلا كتفه الأيسر، الذي لا يماثله كتفه الأيمن، حيث إنه غير مغطى بإزار الإحرام، ويجب أن يكون الكتف الأيسر إلى جانب الكعبة. وتبدأ نقطة البداية في الطواف من موقع محاذٍ للحجر الأسود المعروف، الذي في الركن الشمالي الشرقي من مبنى الكعبة(٢٤). وعندما يكون الحاج طائفًا يردد نداء التلبية المعلوم(٢٥)، وفي طريق العودة يقبِّل الحجر الأسود، أما إذا لم يستطع الاقتراب من الكعبة نسبة للزحام فعليه أن يلوح بيده عندما يحاذيه، وهذا أيضًا يعد فضيلة. ويوجد حجر آخر غير أسود لكنه يميل إلى الصُفرة، ويُعرف بالركن اليماني في الجزء الجنوبي من مبنى الكعبة، ويجوز للحاج أيضًا أن يقبِّله أو يلوح بيده عندما يحاذيه أثناء الطواف، إلا أن ذلك ليس واجبًا، كما هي الحال بالنسبة للحجر الأسود(٢٦). ويكون السعي سبعة أشواط، سيرًا على الأقدام بين الصفا والمروة، وهما جبلان يقعان خارج صحن الحرم المكي في اتجاه الشرق(٢٧)، لكنهما يبعدان من بعضهما. وفي نقطة معينة من هذا السعي سواء كان ذلك قدومًا أو رواحًا يجب على

---

(٢٤) الحجر الأسود يقع في الناحية الجنوبية الشرقية، وليس الشمال الشرقي.

(٢٥) التلبية ذكر مخصوص يقوله الحاج أو المعتمر، والصيغة المروية عن رسول الله ﷺ: "لبيك الله اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك".

(٢٦) تقبيل الحجر الأسود ليس واجبًا كما أشار هنا، بل هو سنة، كما أن تقبيل الركن اليماني ليس واجبًا، بل إن الصحيح هو استلامه إن أمكن دون تقبيله، وإن لم يتمكن من ذلك فلا يلوح أو يشير إليه.

(٢٧) بعد توسعة الحرم المكي في العهد السعودي أصبحا ضمن بناء المسجد، ويكون السعي بينهما مشيًا، وهرولة بين العلمين الأخضرين.

الحاج أن يهرول(٢٨) لمسافة عشر ياردات. ويستطيع الحاج أيضًا أن يركب على ظهر حمار إذا كان مجهدًا وعاجزًا عن السير، ثم يوضع في شبرية(٢٩) يحملها أجراء متخصصون أثناء الطواف؛ لأنه يمنع استخدام الدواب داخل صحن المسجد. وبعد الصفا يأتي الحلاق، ويحلق شعر الحاج. وبعد ذلك يتحلل الحاج من الإحرام، ويرتدي ثيابه العادية.

ويُعرف هذا الإجراء بالعمرة وفي اللغة الملايوية بـ "حج كجيل". ويجوز للحاج أن يؤدي العمرة طوال أيام السنة عدا الفترة الواقعة بين الأول من شوال والثاني عشر من ذي الحجة(٣٠). فيذهب الحاج إلى التنعيم(٣١)، التي تقع عند ملتقى طريق المدينة الذي يفصل الأرض المقدسة في مكة عن باقي الأراضي الأخرى، ويحرم من هناك، ويسعى بين الصفا والمروة، ويحلق شعر رأسه. ويمكن أن تؤدى العمرة بصفة متكررة، لكن المُستَحَب بالنسبة للحاج هو أن يؤديها مع الطواف الذي يمكن أداؤه في أي زمان، وأي وقت من السنة دون ارتداء الإحرام(٣٢).

---

(٢٨) ليست الهرولة واجبة، بل مستحبة.

(٢٩) الشبرية هي على هيئة سرير مربع الشكل، يكون باطنها إلى أعلى، وظهرها إلى أسفل، يجلس الحاج في وسطها، ويحمله الحمالون من أطرافها البارزة. وتصنع الشبرية من أخشاب خاصة قوية مثل (الخشب الجاوي الأحمر)، وفي مقاسات تلائم أحجام جميع الناس، ويقوم بهذه المهنة بعض الأفارقة النيجيريين الذين يقطنون مكة منذ عقود طويلة من الزمن، فقد امتهنوا هذه المهنة، وورثوها لأبنائهم جيلاً عن جيل إلى يومنا هذا. لمزيد من التفصيل انظر: عبد محمد أبكر، "الشبرية المكية... الطواف فوق رؤوس الرجال"، مجلة الحج والعمرة، العدد الثالث، ربيع الأول ١٤٢٤هـ/ مايو ٢٠٠٣، ص٥٢-٥٥.

(٣٠) هذا التحديد غير صحيح، والاستثناء الوحيد هو إذا تلبس الإنسان بالحج، فلا يدخل عليه عمرة وهو منشغل في أعمال الحج.

(٣١) التنعيم: أحد أحياء مكة على الطريق المؤدية إلى المدينة المنورة، ويقع على بعد (٦ كم) شمالي المسجد الحرام. وبه مسجد السيدة عائشة، ويعد ميقاتًا مكانيًا لمن يريد العمرة من أهل مكة أو المقيمين فيها لفترات عارضة.

(٣٢) الكلام هنا عن أداء العمرة دون ارتداء لباس الإحرام غير صحيح؛ لأن العمرة الصحيحة تتم بنية، وتلفظ بالنسك، ولباس الإحرام المشروع.

تقدر مساحة مكة بنحو أربعة أو خمسة أميال مربعة، ويسكنها بصفة دائمة نحو ثلاثين ألف نسمة، وفي موسم الحج نحو مئة ألف من كل الجنسيات الموجودة تحت الشمس، وهي مبنية على أرض غير مسطحة، بل أقرب أن تكون جبلية، ويتوسطها واد. وقد بُنيت قباب على المواقع التي ولد فيها محمد ﷺ وخلفاؤه الأربعة، وما برح المطوفون يعرّفون الحجاج بهذه الأماكن(٣٣). وأم الرسول آمنة وزوجه الأولى خديجة مقبورتان بمكة في موقع يعرف بـ "المعلاة"(٣٤)، وهي مقبرة كبيرة في ضواحي المدينة. ومواقع دفنهما أيضًا من المواقع التي يزورها الحجاج. ومكة من حيث النظافة والصرف الصحي أفضل من جُدَّة، وتتماثل مبانيها في التصميم المعماري، وشوارعها معفرة وقذرة وضيقة. وفيها أيضًا مشكلة الذباب والناموس، كما هي الحال في جُدَّة(٣٥)، لكنه لحسن الحظ ماؤها جيد، وتوجد بها حفائر تنقل "الماء العذب" من المساقط المائية التي توجد على جوانب بعض مرتفعات الطائف على يمين مكة، ويقال: إن هذه الحفائر قد أنشأتها السيدة زبيدة إحدى نساء خليفة بغداد المعروف بهارون

---

(٣٣) هذه القباب المبنية تضمنت مخالفات شرعية؛ مما أدى إلى إزالتها عند دخول الملك عبدالعزيز - رحمه الله - مكة.

(٣٤) تختلف الروايات التاريخية حول صحة وجود قبري السيدة خديجة بنت خويلد والسيدة آمنة بنت وهب بالمعلاة، حيث يقول تقي الدين الفارسي (ت ٨٨٢هـ): "لا يعرف قبر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ في عهدنا سوى قبر أم المؤمنين ميمونة في سرف". وفيما يخص قبر السيدة خديجة الموجود بالمعلاة يقول ابن ضياء في كتاب "البحر العميق في العمرة إلى بيت الله العتيق"، نقلاً عن المرجاني: إنه في أول القرن الثامن رأى أحد الأولياء رؤيا، بأن الموضع الموجود في المعلاة هو قبر السيدة خديجة رضي الله عنها. ومن ثم فإن القبر الذي يُنسب إلى السيدة خديجة لا يثبت أمام التاريخ، والراجح أنه قد أسس في ضوء الرؤيا الوارد ذكرها، والله أعلم. وهناك روايتان بشأن السيدة آمنة، ترى إحداهما أنها دفنت في شعب أبي ذئب الخزاعي في الحجون، وتزعم الثانية بأنها دُفنت في دار رابعة بالمعلاة بثنية أذاخر، سنوك، ص ٣٧٢. والصحيح أنها دفنت في الأبواء بين مكة والمدينة.

(٣٥) هذه الأحوال والأوضاع تبدلت اليوم، ومنذ دخول الملك عبدالعزيز مكة المكرمة عني - رحمه الله - بخدمة الأماكن المقدسة والمحافظة عليها.

الرشيد(٣٦). وشوارع مكة مملوءة بالكلاب، والكلب بالنسبة للمسلمين مثل الخنزير في النجاسة، ولو لمسه الشخص يحتاج إلى وضوء خاص ليعود إلى طهره مرة أخرى(٣٧). وهذه الكلاب كلاب ضالة وتوجد في أي مكان، إلا أنها غير مؤذية حسب قول سكان مكة القدامى، ولا يُعرف عنها السعر إطلاقًا، أو لا يُقال: إنها عقرت أي شخص. وقد أخبر الكاتب أن السبب وراء تسامح الناس تجاه هذه الحيوانات القذرة هو أنها تقوم بحماية الكعبة من تلوث الكفار، وأنها مسلحة بقوة خفية تعينها على معرفتهم إذا حاولوا الدخول إلى الأرض المقدسة، فهي تنقض عليهم، وتعقرهم حتى يموتوا موتًا مشينًا يستحقونه(٣٨).

والمسجد الحرام هو السمة المميزة لهذه المدينة المقدسة، ويقع في قلبها حيث يطل على الوادي المذكور، وهو محاط بمجموعة من الجبال التي تنهض عند سفوحها منازل العرب الشاهقة. كما أنه مُسوَّرٌ من كل الجوانب، وسقفه يقوم على أعمدة داخلية بينها وبين الجدار نحو ستين قدمًا، وشكله مستطيل مع زوايا منفرجة تزيد قليلاً عن تسعين درجة في الركنين الجنوب الشرقي والشمال الغربي، وطوله حوالي أربعمئة وستين قدمًا من الشمال إلى الجنوب، وعرضه أربعمئة وأربعون قدمًا من الشرق إلى الغرب. ويُعرف هذا المسجد الشريف أحيانًا بـ "بيت الله"، ويظهر هيكله في شكل مسرح للأيام

---

(٣٦) يقصد الكاتب البئر أو العين التي أمرت بحفرها السيدة أمة العزيز بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور الملقبة بـ "زبيدة"، وزوج الخليفة هارون الرشيد. وقد أمرت هذه السيدة الخيرة بتنفيذ هذا المشروع في أواخر القرن الثاني للهجرة عندما سمعت بشح المياه في شعاب مكة. وتنفيذ هذا العمل الخيري تم نتيجة لعزمها الصادق الذي تجسد في قولتها المشهورة للمعماريين، التي يحفظها أهل مكة عن ظهر قلب: "افعلوها ولو كلفت ضربة الفأس دينارًا من الذهب". وتقع عين زبيدة هذه بين مزدلفة ومكة المكرمة، ويصل ماؤها إلى مشارف مكة وعرفات. لمزيد من التفصيل انظر: أيمن سلطان، "عين زبيدة: قصة امرأة هزمت الجبال بفأس الإصرار"، مجلة الحج والعمرة، العدد، ربيع الآخر ١٤٢٤هـ/ يونيو ٢٠٠٣م، ص٨٣-٤١.

(٣٧) لمس الكلاب لا ينقض الوضوء، ويبدو أن الكاتب يقصد أن المسلم يحتاج إلى غسل يديه؛ نظرًا لنجاسة الكلب.

(٣٨) هذا الكلام غير صحيح، ولا أساس له.

الخوالي. وله أكثر من اثنين وعشرين بابًا(٣٩)، وأكثرها شهرة وأكبرها حجمًا هي: باب الصفا، وباب السلام، وباب الزيارة، وباب إبراهيم. وللمسجد سبع منارات(٤٠) ينادي من خلالها المؤذنون المسلمين للصلاة، وفي داخل المسجد أكثر من ثلاثمئة وأحد عشر عامودًا لتثبيت السقف، وهي على مسافة من الحائط الداخلي. وواحد من هذه الأعمدة بالقرب من باب الزيارة، ويُعرف بعامود الجن(٤١). ويقال: إن الرسول ﷺ عندما كان يشيد في المسجد كان يحتاج إلى عامود واحد، وخلال بحثه هنا وهناك وجد أن العامود المعني بالأمر قد أخفاه ملك الجن، ورفض ألاَّ يرده إلا بعد أن تُدفع إليه كمية من الذهب تعادل وزن العامود نفسه. وقد كان الرسول ﷺ في حاجة ماسة لهذا العامود، فوافق على أن يدفع ما طلبه ملك الجن، وقام بوضع العامود في واحد من الموازين وخاتمه في ميزان آخر. والشيء الذي سبب إزعاجًا عظيمًا لملك الجن هو أن خاتم الرسول ﷺ كان أثقل وزنًا من العامود. وفي ثورة غضب عارمة سدد الجان ضربة قوية بسيفه على العامود شطَّت جزءًا منه، وما يزال أثر هذه الضربة باقيًا إلى يومنا هذا. فلا شك أنها خرافة مقبولة، لكن مَنْ يستطيع أن يلقي ابتسامة إذا كان التاريخ يحكي لنا أن السلطان العثماني سليم الأول هو الذي بنى المسجد من ثلاثمئة وأحد عشر عامودًا(٤٢)،

---

(٣٩) عندما زار سنوك هورغرونية مكة في عام ١٨٨٥م كان عدد أبواب المسجد الحرام تسعة عشر بابًا، وبعد توسعة الحرم الأخيرة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله أصبح عدد الأبواب الحالية خمسة وتسعين بابًا.

(٤٠) بعد توسعة الحرم الأخيرة أصبح عدد المنارات تسعًا: اثنتان فوق باب الفتح، اثنتان فوق باب العمرة، واثنتان فوق باب الملك عبدالعزيز، واثنتان فوق باب الملك فهد، ومنارة واحدة على الصفا. لمزيد من التفصيل انظر: الشريف محمد بن مساعد الحسني، "منائر المسجد الحرام من العهد العباسي إلى العهد السعودي"، مجلة البلد الأمين، العدد الحادي عشر، المحرم - ربيع الثاني ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٦-١٩.

(٤١) هذه خرافة، ولا أساس لها من الصحة.

(٤٢) الذي بدأ ببناء المسجد الحرام هو السلطان سليم الثاني، وانتهت تلك العمارة في عهد ابنه السلطان مراد الثالث. انظر: السباعي، المرجع السابق، ج٢، ص٥٤٣-٥٤٤.

وليس الرسول ﷺ. وصحن المسجد ليس معروشًا، بل إن أرضيته مرصوفة بالحصى ومقسمة إلى أجزاء تربط بينها ممرات للمشاة من كل الجهات، تتجه صوب مركز المسجد الذي يشكل قاعدة الكعبة. وتظهر هنا وهناك أشياء تُشبه الفسطاط، أربعة منها تمثل مقامات أئمة المذاهب الأربعة السنية، حيث يؤمون الصلوات الخمس الجامعة. وواحد منها هو المنبر الذي تُلقى منه خطبة الجمعة أو العيد، وآخر على مقربة منه يُعرف بمقام إبراهيم، ويُسمى بذلك؛ لأنه هو الموقع الذي دعا فيه النبي إبراهيم ربه. وبجواره حائطٌ مُسوَّرٌ بداخله بئر زمزم الشهيرة(٤٣).

وتوجد الكعبة في وسط المسجد، وهي عبارة عن حجر مكعب الشكل ارتفاعه نحو ستة وثلاثين قدمًا، وطوله نحو اثنين وثلاثين قدمًا، وعرضه نحو ثلاثين قدمًا. وهي مكسوة بحرير أسود نسجت عليه آيات من القرآن الكريم، طرزتها وصيفات في مصر، التي كان يُرسل منها المحمل سنويًا(٤٤). وعلى مقربة من الركن الشرقي للكعبة باب يقدر ارتفاعه بسبعة أقدام، ويُفتح هذا الباب في أوقات معينة من السنة، عندما يُسمح للناس بغسيل بلاط الكعبة الذي يغطي كل

---

(٤٣) زمزم بئر عظيمة الأثر في الإسلام، يرجع تاريخ نبع مياهها إلى عصر نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، ويقال: إن هذا النبع تفجر بين رجلي إسماعيل عليه السلام عندما كانت تبحث أمه هاجر عن مصدر ماء بين جبل الصفا والمروة، وحينما تفجر النبع قالت هاجر مخاطبة ابنها الرضيع: الماء زمزم؛ أي: تجمع في مكان واحد، فلا تذهب عني بعيدًا، ومن هنا سمي هذا النبع ماء زمزم. وفي فضله وردت أحاديث كثيرة، نذكر منها ما رواه ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم"، وقوله ﷺ: "ماء زمزم لما شرب له".

(٤٤) المحمل قبة من خشب رائعة الصنعة، به شبابيك ملونة بأنواع من الأصباغ، وعليه تحمل كسوة الكعبة المصنوعة من الديباج المخوص بالذهب، ويُحمل على جمل أعظم ما يكون من السمن وحسن المنظر، خُضِّب جلده بالحناء، وزُينت رقبته وسائر أعضائه بجواهر نفيسة، ويقاد برسن محلًّى بالجواهر. وكانت تقام الاحتفالات بالمحمل يوم خروجه ويوم عودته، وعند وصوله إلى مكة يكون شريف مكة المكرمة دائمًا في استقباله. لمزيد من التفصيل انظر: إبراهيم حلمي، المحمل، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د. ت.

أجزائها، وارتفاع البلاط أيضًا سبعة أقدام من قاعدة الكعبة. ولا يوجد على هذا البلاط سجاد أو أي بساط من هذا القبيل، ولا توجد على الجدران أي نقوش. ولكن داخل الكعبة عامودان(٤٥)، وليس هناك مخرج إلى السطح العلوي إلا من الخارج(٤٦). وتُرى على السقف بعض آثار الأواني المنزلية القديمة معلقة، مثل: أباريق ماء نحاسية، وأحواض، وما شابه ذلك، ويقال: إنها كانت ملكًا للنبي إبراهيم عليه السلام والنبي محمد ﷺ. وقد سبق الحديث عن الحجر الأسود والحجر الأصفر(٤٧)، اللذين يوجدان في خارج جدار الكعبة، لكن الشيء الوحيد الذي لم يذكر هو الميزاب الصغير المصنوع من الذهب الخالص الذي يُستعمل في صرف مياه الأمطار من سقف الكعبة.

وقد بنى الكعبة النبي إبراهيم عليه السلام، وتمت صيانتها مرات عدة، آخرها كان قبل مئة عام من وفاة النبي محمد ﷺ. وصوب هذه الكعبة يُولي المسلمون وجوههم في كل بقاع العالم. وهناك اعتقاد بأن الحجر الأسود قد هبط من السماء مع آدم وحواء، والقصة تمضي وتقول: إن هذا الحجر كان أبيض اللون في بادئ الأمر، لكنه أضحى أسود، وحسب الرواية الخرافية فإن هذا السواد سببه الذنوب التي اقترفها الإنسان. لكن لا توجد قصة تُروى عن الحجر الأصفر(٤٨).

---

(٤٥) الصحيح أنه يوجد داخل الكعبة ثلاثة أعمدة. حسين باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة: عمارتها وكسوتها وسدانتها، الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٩٩٩م، ص١٧٧.

(٤٦) الصحيح أنه يوجد داخل الكعبة سلم يفضي إلى سطحها. باسلامة، المرجع السابق، ص١٧٨-١٧٩.

(٤٧) يقصد بالحجر الأصفر الركن اليماني.

(٤٨) كلام الكاتب عن بناء الكعبة غير صحيح، فقد أعيد بناء الكعبة (١٢) مرة، وقد شهد الرسول ﷺ بناء الكعبة عندما احترقت قبل بعثته. باسلامة، المرجع السابق، ص٨٧-١٠٤. وكذلك عده أن سواد الحجر بسبب الذنوب رواية خرافية خطأ؛ إذ ورد إثبات ذلك في سنن الترمذي: ٢٢٦/٣، وصحيح ابن خزيمة: ٢١٩/٤.

والقصة التي تُروى عن زمزم، هي أن هاجر زوج إبراهيم عليه السلام عندما وضعت إسماعيل عليه السلام في الصحراء القاحلة، وقتها لم تكن مكة مدينة، ولا توجد فيها أية بقعة ماء لتغتسل به هاجر، لذا فإنها قد تركت الصبي حديث الولادة ملقى على الرمال، وذهبت تبحث عن الماء، وعند عودتها إلى الطفل وجدت نبعًا في المكان الذي كان الطفل يرفسٍ فيه برجليه الصغيرتين، ويبدو أن هذا الحادث قد وقع استجابةً لدعائها.

ومن الحوض الصغير الذي وضع لتجميع مياه هذا النبع نشأت بئر زمزم الحالية، وعمقها الآن أكثر من عشرين قدمًا. وماء زمزم ليس حلوًا في مذاقه كالماء العذب، إلا أن عذوبته تُثبت للحاج بحجة أنه من عند الله سبحانه وتعالى.

أما سعي الحاج بين الصفا والمروة فهو مجرد تَذكُّر لتوسلات السيدة هاجر إلى الله سبحانه وتعالى في حالة كربها(٤٩)؛ لأنها كانت تتضرع بين هذين الموقعين إلى الله سبحانه وتعالى وتبحث عن الماء. ولا يمكن أن نعطي وصفًا كاملاً للمسجد الحرام دون ذكر الأعداد الكبيرة من الحمام التي تُرى هناك، ويُنظر إليها باعتبارها مقدسة(٥٠)، لم يسمع الكاتب أنها تعرضت لصيد أو طهي، ويعتقد الكثير أن هذا الحمام من الحيوانات الأليفة التي كانت ترعاها السيدة فاطمة البنت المحببة للنبي ﷺ، فهي تتكاثر، ويتضاعف عددها دون أي عوائق، ويرى الزائر أنها تطعم من حبوب الذرة أو الأرز في داخل صحن المسجد، كأنها في مزرعة للطيور الداجنة.

ومن الأماكن الأخرى الممتعة التي يزورها الحاج في مكة بجانب مواضع ميلاد النبي ﷺ وخلفائه الأربعة وقبتي السيدة آمنة والسيدة

---

(٤٩) السعي شعيرة من شعائر الحج والعمرة، وليس مجرد تذكر لدعاء السيدة هاجر لربها.

(٥٠) الحمام في الحرم ليس مقدسًا، لكن يحرم صيده.

خديجة هي: جبل قُبيس(٥١)، وجبل النور(٥٢)، وجبل ثور(٥٣). ويطلق لفظ جبل في اللغة العربية على أية قمة شاهقة أو أرض مرتفعة. والموقع الذي يعرف بجبل قُبيس في الجانب الشرقي، وعلى مرأى من مكة، وتقدر مسافته من المسجد بنحو ميل تقريبًا. وفي الطريق المؤدية إلى هذا الجبل غار صغير يقيم فيه شيخ الطريقة الصوفية المعروفة بـ "الطريقة النقشبندية"(٥٤)، وهو موقع معزول يقود زائره إلى ضرب من الحياة البائسة المتقشفة والمنقطعة عن باقي العالم. وهناك مرتفع يستطيع أن يحيي الحاج منه مريديه وأقرباءه الذين يقطنون في القرى النائية، ذاكرًا أسماءهم المشهورة عسى أن الله يَمُن عليهم بأداء فريضة الحج(٥٥).

---

(٥١) هو جبل مشرف على الصفا، وقد كان فيه مسجد بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسجد انشقاق القمر، ويقال: إنَّ فيه قبر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعليه الآن بعض القصور الملكية. ولا تُعدُّ زيارته من شعائر الحج والعمرة. ويصفه العياشي (ت ١٠٩٠هـ) ضمن الأماكن التي تزار، ويقول إن: "الحجاج [كانوا] يشترون من مكة رؤوس الغنم المشوية، ويصعدون إليه، ويأكلونها فيه، ويزعمون أن من فعل ذلك أمن من وجع الأسنان والرأس". نقلاً عن حمد الجاسر، المرجع السابق، ص٦٠.

(٥٢) هو جبل متوحد بأعلى مكة المكرمة يبعد نحو ثلاثة أميال منها، وعلى رأسه قبَّة تُرى من المسجد الحرام، وفي أعلاه شبه مسجد على باب القبَّة، يصلي فيه الناس تبركًا، ويقع غار حراء من الناحية الغربية الموالية لمكة وأسفل القبَّة بين عدد من الصخور. وغار حراء هو المكان الذي كان يتحنث فيه رسول الله ﷺ قبل مجيء الوحي، وفيه تم اللقاء الأول بين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ والرسول ﷺ. حمد الجاسر، مرجع سابق، ص٥٣-٥٤.

(٥٣) هو الجبل الذي فيه غار الهجرة المعروف بغار ثور، وهو الغار الذي اختفى فيه رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أعين مشركي مكة الذين كانوا يطاردونهما، ومنه انطلقا إلى يثرب. ويقع على بُعد ثلاثة أميال من مكة. حمد الجاسر، المرجع السابق، ص٥٤.

(٥٤) الطريقة النقشبندية طريقة صوفية، تقوم على الذكر والمعارف الباطنية، أسسها محمد بهاء الدين بن محمد البخاري النقشبندي (ت ٧٩١هـ)، ولها أتباع ومريدون في تركيا، والأناضول، والهند، وجنوب شرق آسيا، وبدخول الملك عبدالعزيز مكة المكرمة تم القضاء على البدع، ومنها الصوفية وطرائقها المختلفة.

(٥٥) هذه البدع والخرافات انتهت في العهد السعودي.

ويقع جبل النور على نحو أربعة أميال شمال مكة، وكان النبي ﷺ يتعبد فيه قبل نزول الوحي، وهنا ظهر له رسول الله جبريل عليه السلام ومعه الرسالة، وقرأ وطلب منه أن يقرأ أول آية من القرآن: "اقرأ باسم ربك...". إلا أن القصة التي تُروى للملايوي هي أن جبريل التقى النبي ﷺ في جبل النور عندما كان صبيًا، ثم نظف قلبه من الدم الأسود، وترك له فقط دم الفضيلة(٥٦). وعملية تنظيف القلب هذه قد كررها أيضًا الملك نفسه عند بئر زمرم وبمائها الطهور، وفي هذه الأثناء كان النبي ﷺ يريد أن يعرج إلى السماء في ليلة النصف من شعبان، حيث التقاه به جبريل، وغرس في قلبه نور الإيمان.

ويقع جبل ثور على بُعد عشرة أميال تقريبًا جنوب مكة، وعند سفحه يوجد الغار الذي لجأ إليه النبي ﷺ في رحلته الأولى إلى المدينة، حيث أنقذت العنكبوت حياته عندما نسجت بيتًا في مدخل الغار بعد قدوم النبي إليه(٥٧)، ولذلك لم يعتقد فريق الكفار الذي كان يبحث عن النبي بوجوده داخل الغار، بحجة أن دخول أي شخص إلى الغار يجب أن يفضي إلى تحطيم بيت العنكبوت. وتبين هذه القصة سبب عدم جرأة الملايوي على قتل العنكبوت؛ لأنه ينظر إليه بصفته صديقًا للنبي ﷺ. وهناك قصة أخرى حديثة عهد في الملايو إلا أنها لم تكن موثقة في الجزيرة العربية، وهي أن النبي عندما كان مختبئًا داخل هذا الغار ألقى أحد الباحثين عنه حجرًا داخل الغار، وضرب ذلك الحجر النبي على فمه، فشطر أحد فواطره إلى نصفين، وأن

---

(٥٦) لقد رويت حادثة شق الصدر هذه بطرق صحيحة، وعن كثير من الصحابة، منهم: أنس بن مالك رضي الله عنه فيما يرويه مسلم في صحيحه: "أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرجه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - مرضعته - ينادون: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون". وثبت في الصحيح تكرار حادث شق صدر الرسول ﷺ أكثر من مرة. انظر: صحيح مسلم، ١/١٠، ١٠٢.

(٥٧) حدث هذا بأمر الله تعالى وتقديره.

النبي كان لا يرغب في أن تُرى سنه مشطورة، فلذا قام بتسوية أسنانه الأخرى بمستوى السن المشطورة. وهذا هو السبب الذي يركن إليه الملايويون عندما يبردون أسنانهم أسوة بالنبي ﷺ(٥٨).

الرحلة إلى المدينة المنورة

زيارة قبر النبي ﷺ في المدينة واحدة من شعائر الحج التي يكون الحاج الملايوي متشوقًا لأدائها، بالرغم من أنها لم تكن ركنًا من أركان الحج(٥٩). ويعزى هذا التشوق إلى تذكر الشخص لقول النبي ﷺ: "الذين يرونني حيًا أو ميتًا أحسبهم مثل أصحابي، وسيحظون يوم القيامة بشفاعتي"(٦٠).

وتُشد إلى المدينة ثلاث قوافل سنويًا، الأولى قبل شهر رمضان، والثانية بعد شهر رمضان، والثالثة بعد الحج. ويفضل الملايويون عمومًا الأولى والثانية، إلا إذا قصدوا الإقامة في الحجاز لموسم الحج القادم، حيث إنهم لا يرفضون الذهاب في القافلة الثالثة. وفي حالة الذهاب إلى المدينة لا حاجة لارتداء الإحرام، لكن في حالة العودة إلى مكة فهو واجب(٦١)؛ لأن القاعدة تقول: "يجب أن يكون الشخص عند دخول مكة في زي الإحرام". وفي المقابل، يجب على الشخص المغادر مكة أن يؤدي طواف الوداع، ويراد بالوداع مغادرة مكة.

---

(٥٨) هذا الكلام غير صحيح، وغير ثابت.

(٥٩) الزيارة المشروعة هي للمسجد النبوي والسلام على رسول الله ﷺ، وليست هذه الزيارة من شعائر الحج.

(٦٠) يبدو أن الكاتب قد حاول أن يجمع بين حديثي الرسول ﷺ بالكيفية التي أشار إليها. ويُروى الحديث الأول الذي أخرجه الطبراني والدارقطني من حديث ابن عمر على الصيغة الآتية: "من زارني بعد وفاتي كأنما زارني في حياتي". أما الحديث الثاني فقد أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر، وصححه ابن السكن على هذا النحو: "من جاءني زائرًا لا تهمه إلا زيارتي كان حقًا على الله أن أكون له شفيعًا".

(٦١) لا يشترط لدخول مكة ارتداء الإحرام إلا لقاصد الحج أو العمرة.

وبعد طواف الوداع يبدأ الحاج رحلته إلى المدينة بالجمال، وتستغرق الرحلة إلى المدينة اثنتي عشرة ليلة، يتوقف فيها الحاج عند أحد عشر موقفًا مختلفًا، وهي مرتبة كما يأتي: وادي فاطمة، وعُسّفان، وسرف، والقديد، ورابغ(٦٢)، ومستورة، وبئر الشيخ، وبئر حسن، وبئر خليص، وبئر عباس، وبئر درويش. وتقع هذه المواقف المذكورة على الطريق السلطاني المعروف، الذي سلكه الكاتب عندما رافق القافلة الثانية عام ١٩٢٣م. ويُعرف الطريق الآخر بـ "شارع غير"، الذي يتفرع من رابغ، ويلتقي الطريق السلطاني عند بئر خليص. ويقال: إن هذا الطريق الثاني أقصر، إلا أن فيه بعض المرتفعات التي يجب أن يتسنمها الحاج.

وبالنسبة للرحلة من جُدَّة إلى مكة تتحرك القافلة في المساء دون النهار، حيث يبدأ التحرك حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، ويتوقف السير عند الساعة الثالثة أو الرابعة صباحًا، ولا ينسى الكاتب إطلاقًا منظر الأعمدة المثبتة على الأرض أو الرمال، والمنصوب عليها قناديل(٦٣) زيتية لإضاءة مداخل المواقف المختلفة. ويظهر بريق هذه القناديل المعلقة من على البُعد، كأنها نجوم في فجر دامس، وتبدو هذه القناديل أكثر وضوحًا عندما تقترب القافلة. ومع صوت الموسيقا والغناء العربي والهندي، وصداهما ورجع الصدى في الفضاء الذي تغطيه كثبان الرمال، يكاد قلب الإنسان يذوب، ويتمنى السامع العودة إلى وطنه الأم على جناح السرعة؛ ليستمع إلى موسيقاه المحلية. ويبدو غريبًا أن الملايويين ليسوا كالهنود، لا يتغنون

---

(٦٢) هو ميقات اتخذه الناس في القرون المتأخرة بعد خراب الجُحفَة التي تعد ميقاتًا مكانيًا لأهل الشام والأردن وتركيا ومصر، كما حدَّده الرسول ﷺ في حديث المواقيت. وتبعد رابغ عن مكة نحو (١٨٣كم).

(٦٣) القناديل: آنية من الزجاج مشبوكة من ثلاث جهات في سلسلة تعلق منها، وفي جوف الآنية كأس يجعلون فيه الزيت والماء في وسطه ذبالة رفيعة يضيئها الموكلون بمشاعل يمسون بها الذبالة. انظر: أحمد السباعي، المرجع السابق، ج٢، ص٦٦٦.

بأغانيهم في مثل هذه الأماكن، وإذا شعروا بنوع من البهجة والسرور يعبرون عن ذلك بأنغام عربية، وليست ملايوية.

وعند انبلاج الصباح يظهر كل موقف من هذه المواقف كأنه مدينة صغيرة، حيث يتم بيع كل احتياجات الإنسان المتوافرة في الجزيرة العربية، والغريب في الأمر أن مباني هذه المتاجر مصنوعة من الصفيح، وليست ثابتة، عدا في رابغ التي تُعدُّ مدينة محصنة وميناءً متواضع الأهمية. وتُصنف عروض التجارة المختلفة عن بعضها بعضًا، ويوضع كل صنف في شكل حدوة حصان بداخل الشُقدف المحمول فيه، ويكون المدخل عند النقطة التي لا تكتمل فيها الدائرة. ويظل الحجاج مشغولين طوال اليوم بالشراء وإعداد الطعام، الذي يأكلون جزءًا منه في الموقف، ويحتفظون بالباقي معهم في الشقادف. وتقع هذه المواقف عادة في مواقع فيها آبار، ولكن الحجاج ليس مسموحًا لهم بسحب الماء من هذه الآبار؛ لأنها مِلكٌ للبدو الذين يأتون بقِرَب جلديةٍ مملوءة بالماء للبيع. ولكن يوجد في وادي فاطمة نُهير من الماء العذب، وحجمه أقل من حجم حفير واسع، يغسل فيه الحجاج أبدانهم، أو ثيابهم دون أجر. والماء في كل الآبار الواقعة في هذه المواقف جيِّد، إلا القديد ورابغ ومستورة فإن ماءها مالح؛ لأنها تقع على مقربة من ساحل البحر. وفي الحقيقة أن قُربها من البحر يُمكِّن الشخص من شراء سمكة حية، ومن رؤية البحر الأحمر بين القديد ورابغ.

وفي هذا المقام يستحسن أن أعطي وصفًا مختصرًا لكل المواقع التي رأيتها أثناء الرحلة، لكن لسوء الحظ هناك القليل الذي يذكر؛ لأن السفر كان معظمه في جنح الظلام. والذي يمكن أن يشاهده الإنسان في وضح النهار، معظمه عبارة عن سلاسل جبلية من الصخور الجرداء، تتخللها بعض السهول المنبسطة التي ينمو فيها البطيخ والذرة، وفي الأراضي المنخفضة شجر الدوم. ولا أثر لخيام

البدو على طول الطريق، والرأي السائد هو أن البدو في حالة ترحال دائم من مكان إلى آخر مع خيامهم، إلا أن هذا الرأي حسب ملاحظات الكاتب الشخصية ليس صحيحًا كل الصحة؛ لأنه لا يوجد بشرٌ تحت الشمس أكثر حبًا لمساكنهم وأوطانهم من البدو. وكما هو معلوم فإن البدو يمكن أن يسكنوا في منطقة معينة لمئات السنين دون أدنى محاولة للنزوح أو التفاتة للأماكن الغنية التي تقع على مقربة منها. وفي كثير من الأحيان أتحدث للبدو عن بلاد الملايو، معطيًا إياهم روايات مبالغًا فيها عن غناء الملايو وجمالها، وذلك مقارنة بأرضهم الجرداء التي تضاهي ندرة الماء فيها ندرة الذهب، وعندما أحكي لهم عن هذه القضايا يكاد لعابهم يسيل. وبعد سماعهم مثل هذا العطاء الإلهي غير المحدود يكون في خاتمة المطاف ردهم دون استثناء: "إن بلدك ربما يكون قد حصل على أفضل شيء يمكن أن يعطيه الله سبحانه وتعالى الإنسان في هذه الدنيا، لكن لا يوجد شيء يقنعنا أن نترك منازلنا وأوطاننا".

وكما ذكرنا من قبل فإن الرحلة إلى المدينة تستغرق اثنتي عشرة ليلة، لكن في كثير من الأحيان يمكن أن تستغرق مدة أقل من هذه، والتأخير يتسبب فيه البدو الذين يتمهلون في سير القوافل لاستغلال أموال الحجاج. وهناك سر معلوم هو أن ذمم هذه القبائل البدوية الواقعة على طول طريق المدينة، وخاصة المنطقة الواقعة بين بئر حسن وبئر عباس، هي مرهونة بإعانات سنوية يدفعها حاكم الحجاز مقابل أن يكف هؤلاء البدو عن نهب الحجاج. وفي القافلة الثانية من مكة إلى المدينة عام ١٩٢٣م، التي صحبها الكاتب، توقفت القافلة فقط في بئر عباس تسع ليال، والقافلة الثالثة توقفت في المكان والزمان نفسه أكثر من ثلاثين يوما، حتى أضحى الأرز نادرًا، وبلغ سعر كوب الشاي جنيهًا واحدًا. ولا توجد قافلة بلغت المدينة في عام ١٩٢٤م، لأن البدو اعترضوا كل القوافل عند رابغ، ومنعوها من

السير. وهذه هي السنوات التي تنحى فيها الملك حسين حاكم الحجاز(٦٤)، ونجمت هذه المشكلة عندما تفشى الخبر بأن حسينًا لم يكن قادرًا على دفع قيمة الإعانات المتفق عليها مع جملة من القبائل البدوية. بيد أن هذه الإعانات كانت تُدفع بانتظام في عهد الحكم التركي، لكن لا توجد أية قافلة ذهبت إلى مدينة دون أن تكون محروسة بمجموعة من الجند الأتراك، حتى إذا لم تتوقف القافلة في الطريق تحدث جرائم السرقة دائمًا والقتل أحيانًا من قبل الهجانة أثناء سير الرحلة(٦٥).

المدينة المنورة: بلدة طيبة ورسول كريم

بعد رحلة مجهدة وهجير شمس لافح يصل الحاج إلى المدينة. ويوجد هناك جبل صغير عند منعطف الطريق الذي يقود الحاج إلى مشارف المدينة، التي تقع على بُعد ميل واحد. وعند رؤية المدينة المقدسة وموضع قبر الرسول ﷺ تكون مشاعر الحاج دفَّاقة، تجعله ينسى المتاعب والمشاق التي عاناها خلال الأسبوعين أو الثلاثة الماضية، ويُستحسن أن يُترك ذكر ذلك للتجربة الشخصية بدلاً عن الوصف المجرد. ويتذكر الكاتب أن دموع الفرح بدأت تهطل من عينيه عند وصوله إليها، كأنه بعث من الموت إلى الحياة، وتسد العَبرة حلقه،

---

(٦٤) هو الحسين بن علي بن محمد بن عبدالمعين بن عون الحسني الهاشمي (١٨٥٤-١٩٣١م)، خلف عمه عبدالإله على إمارة مكة عام ١٩٠٨م، ووقف في الحرب العالمية الأولى إلى جانب بريطانيا والحلفاء ضد الدولة العثمانية وألمانيا، وبمساندة البريطانيين أحكم قبضته على الحجاز، ثم وجَّه ابنه فيصل إلى بلاد الشام، فدخل سوريا، واحتلها عنوة بمعاونة الجيش البريطاني، وسيطر ابنه عبدالله على عمان، إلا أن نفوذه لم يدم طويلاً في الحجاز، حين دخل الملك عبدالعزيز مكة المكرمة وحاصر جدة، حيث نصحه أهل مكة بالتنازل لابنه علي، ثم انتقل إلى جزيرة قبرص، حيث وافته المنية عام ١٩٣١م، فنقل جثمانه إلى القدس الشريف، ودفن في المسجد الأقصى. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٢، ٤٩-٥٠.

(٦٥) هذه هي الحالة الأمنية في الأماكن المقدسة والطرق المؤدية إليها، لكن هذا تغير عندما دخل الملك عبدالعزيز مكة المكرمة، وأرسى الأمن والاستقرار في كامل المنطقة.

ويصعب عليه أن يمسح عينيه بيده ويزيل الدموع؛ لأنه يخشى أن يجعله مثل هذا السلوك أبله في نظر رفاقه المسافرين. ولكن العيب في النهاية هو أن يمسح هذه الدموع في وقت يشاركه فيه زملاؤه المسافرون المشاعر نفسها، وحقًا أن بعضهم كانوا ينتحبون بأصوات عالية، ويعيِّرهم الهجانة عديمو الخُلق.

والمدينة أصغر من مكة، ويقدر عدد سكانها المقيمين بنحو عشرين ألف نسمة، وهي تقع على وادٍ، وفي أرض منبسطة تحفها الجبال. ونوع المباني وأنماطها تُشبه تمامًا مباني مكة وجُدَّة، لكن الشوارع ليست معفرة ومتسخة؛ لأن أرضها ليست رملية بل طينية. ويرى الشخص أشجار النخيل تنمو بكثافة، وحتى في بعض المناطق يوجد الموز وقصب السكر. وطقس المدينة في الصيف أكثر برودة من مكة، وماؤها يكاد يكون الأفضل في العالم كله. والسكان أكثر تهذيبًا وأفضل خُلُقًا من أي مكان في الحجاز. وحتى إن سوء خُلُق الهجانة وانفعالاتهم وغطرستهم التي يظهرونها أثناء الرحلة تتحول فجأة عند دخولهم المدينة إلى ظرف وحلم ولطف أكثر من لطف الحمل الوديع. ولا يوجد تهريج من بائعي القهوة، والمشروبات، وتجار العملة، كما هو في طرقات مكة. والجميع في حالة هدوء وسكينة، يبعثان الأمن والطمأنينة التي ينشدها المفكرون العظماء في توسلاتهم. وكل شخص يقول في همس: "إن المدينة هادئة ومطمئنة كما شهدها رسول الله ﷺ في حياته".

مسجد المدينة أصغر بكثير من مسجد مكة، ويقع في جنوب المدينة، ويولي شطره تجاه الكعبة، وشكله مستطيل، يقدر طوله بمئتي قدم من الشمال إلى الجنوب، وعرضه بمئة وخمسين قدمًا من الشرق إلى الغرب. وهو مرصوفٌ ومسقوفٌ من ثلاث جهات، مع وجود باحة في الجانب الغربي غير مرصوفة ولا مسقوفة، ومن خلالها تُرى بئر وبعض أشجار النخيل. وتقع في المقابل باحة مخصصة للنساء لأداء

صلواتهن. وفي جهة الجنوب باحة كبرى يؤدي الرجال فيها صلواتهم. ويقع قبر النبي ﷺ في الركن الجنوبي الشرقي للمسجد. وعلى القبر قبة كبيرة، وبداخلها أيضًا قبرا أبي بكر وعمر، الخليفتين الأولين، وفي جوار قبر رسول الله ﷺ قبر ابنته الحبيبة فاطمة(٦٦). ولا يمكن مشاهدة هذه القبور الأربعة إلا عبر ثغرات في جدار القبة، وهي تحت رعاية الأغوات(٦٧) الذين عُينوا حرسًا خاصًا.

وللمسجد خمس مآذن، وجداره الجنوبي من الداخل منقوش بآيات قرآنية كُتبت بماء الذهب، وأرضية المسجد مكسوة بنوع من السجاد الفاخر في العالم. وهناك منبر يلقي منه الخطيب خطب الجمعة والعيد، وعلى مقربة منه يرى الحاج بقعة من التراب تقدر مساحتها ببضعة أقدام، ويقال: إنها مقدسة؛ لأن رسول الله ﷺ

---

(٦٦) يقصد الكاتب الحجرة النبوية الشريفة، وهي مقصورة مصنوعة من النحاس الأصفر، وتقع بالجهة الجنوبية الشرقية من المسجد النبوي، وفيها مدفن النبي ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويقدر طولها بـ (١٦م)، وعرضها بـ (١٥م)، وفي زواياها أربعة أعمدة كبيرة، أقيمت عليها القبة الخضراء، وأول من بنى هذه الحجرة الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز. ولهذه الحجرة النبوية أربعة أبواب هي: باب الوفود في الغرب، وباب التوبة في الجنوب، وباب التهجد في الشمال، وباب فاطمة في الشرق. ولا تعد زيارة هذه الحجرة النبوية شعيرة من شعائر الحج أو العمرة. أما من حيث وجود قبر فاطمة رضي الله عنها فذلك غير صحيح؛ لأنها دفنت في البقيع.

(٦٧) الأغوات مفردها أغا، ويقصد بالأغا في هذا السياق العبد الخصي الذي أُوقف لخدمة المسجد النبوي والحجرة الشريفة، وقد اختار المسلمون وقف الخصي دون غيره؛ لكونه أطهر وأنزه وأكثر فراغًا من الأشغال، إذ لا أهل له ولا ولد يشتغل بهم، وهو أبعد من الجنابة ومباشرة النساء. ويزيد عدد الأغوات في الحرم المدني، وينقص حسب كثرة الراغبين في الوقف وقلتهم، ويأتي رزق الكبار منهم من بيت المال، والبقية من الأوقاف المخصصة للأغوات في المدينة. وللأغوات نظم ضبط معلومة، ووظائف معينة، مثل: حمل مفاتيح الحجرة الشريفة، ونظافة المسجد والحجرة الشريفة وإنارتهما. ومعظمهم مالكية وأحناف حسب مذاهب ساداتهم الذين أوقفوهم، ولا يوجد بينهم شافعية وحنابلة؛ لأن الشافعية والحنابلة لا يقرون صحة وقف ذي الحياة. لمزيد من التفصيل انظر ما قاله العياشي في كتابه ماء الموائد، أو ما نقله عنه حمد الجاسر، مرجع سابق، ص١٧٧-١٧٨.

قد قال ذات مرة: إن هذه البقعة من التراب ستُرفع إلى السماء مع الخلق كافة يوم القيامة(٦٨). ومن ثم يُنصح الحاج أن يؤدي صلاة قصيرة عند هذه البقعة، بحجة أنه سيصطحبها عندما يرفعها الله - سبحانه وتعالى - إلى السماء. وفي الوقت الحاضر لا يهم إذا كانت هذه القصة صحيحة أم لا، لكن يكفي أن راوي مثل هذا السر الديني القيِّم سيحصل على هبة (أو بخشيش) من الحاج غير المتشكك في روايته، ولا عجب أن هذا "البخشيش" سيساعده في جنته الدنيوية. وتوجد خارج المدينة من جهة الجنوب وعلى مسافة تقدر بمئة ياردة من حائط المسجد مقبرة تعرف بـ "البقيع"(٦٩). وهي أيضًا من الأماكن التي يزورها الحاج؛ لأنها تضم عددًا من قباب وقبور الصالحين والشهداء الذين حظوا باحترام الرسول ﷺ وتقديره. وعلى بُعد ميلين من المدينة توجد مقبرة أخرى لشهداء واقعة أُحد الشهيرة التي تعد

---

(٦٨) لم يثبت ما يحتج به على صحة هذا الكلام، ويبدو أن الكاتب يقصد الروضة الشريفة التي قال فيها رسول الله ﷺ: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة". انظر: صحيح البخاري، ج٣، ص٤٩، وصحيح مسلم، ج٤، ص١٢٣. وهي المساحة التي تقع بين الحجرة النبوية ومنبر المسجد النبوي، وشكلها مستطيل، وامتدادها من الشرق إلى الغرب يقدر بـ (١٢م)، أما عرضها (١٥م). ويرجع تاريخ عمارتها على شكلها الحاضر إلى عهد السلطان عبدالمجيد الأول (ت ١٢٧٧هـ). ويختلف أهل العلم في المراد بقول الرسول ﷺ بأنها روضة من رياض الجنة، ويرى بعضهم أن المراد بقوله ﷺ هو انتقال هذا الموضع بعينه إلى الجنة، ويرى آخرون أن العبادة أو الصلاة في هذا الموضع تؤدي إلى الجنة.

(٦٩) البقيع (أو بقيع الغرقد) هو مقبرة أهل المدينة، يقع شرقي المسجد النبوي، وهو مقسم ثلاثة أقسام، يدفن في كل قسم مدة سنة، ثم يدفن في القسم الذي يليه، وبين هذه الأقسام طرقات يسير فيها الناس حتى لا يطؤوا القبور، ويحد كل طريق بسورين قصيرين، وقد رصفت الحكومة السعودية هذه الطرق بالأسمنت، وأنشأت سورًا مرتفعًا حول البقيع. وتكمن أهمية البقيع في ضمه بعض قبور صحابة رسول الله ﷺ، وبنات الرسول ﷺ وابنه إبراهيم، وأمهات المؤمنين. وكان الرسول ﷺ يزوره بانتظام ويحيي أهل البقيع بقوله: "السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، إنا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية". لمزيد من التفصيل انظر: محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة: معالم وحضارة، ط ١، دمشق: دار القلم، ١٩٩٦م، ص٧٣-١٤٣.

من أعظم انتصارات الرسول ﷺ(٧٠)، ومن بين الشهداء الذين قُبروا في هذه المقبرة حمزة عم الرسول ﷺ، وهو مجاهد عظيم من قادة رسول الله ﷺ. وتقع هذه المقبرة عند سفح جبل أُحد. ويزور الحاج كل هذه المواقع مع المطوف، ويواصل إقامته في المدينة لحين حضور صلاة الجمعة، وبعدها يُخطر بإعداد التجهيزات اللازمة للعودة إلى مكة. ويصرف الحاج في هذه اللحظة كل مال ادخره؛ وذلك لشراء تمر المدينة الذي يقال: إنه أفضل تمر في العالم(٧١)، ثم يعود إلى مكة على الطريق نفسه الذي سلكه، ويواجه الصعاب والمشاق نفسها، إلا أن الاختلاف الوحيد هو أنه ليس في زي الإحرام.

الطائف: حديقة غناء وهواء طلق

الحاج الذي لا يستطيع زيارة المدينة المنورة يمكن أن يجني الفضائل نفسها بزيارة الطائف(٧٢)، كما يُذكر أن رسول الله ﷺ قال: "إنَّ زيارة قبر عمي العباس في الطائف(٧٣) هي مساوية في الفضل لزيارتي(٧٤)

---

(٧٠) يبدو أن الكاتب قد خلط بين واقعة بدر الكبرى وواقعة جبل أُحد؛ لأن المسلمين انتصروا في الأولى، وهزموا في الثانية. ويقع جبل أحد في شمال المدينة المنورة، ويبعد عنها نحو (٥,٤كم)، ويقال: إنه سمي أحدًا لتوحده وتفرده، فليست هناك جبال تتصل به، وإن خيل إلى من ينظر إليه أنه مكون من جبال عدة لكثرة ما يبدو من الرؤوس والشعب التي تتخلله. وهو يقع داخل حدود الحرم المدني؛ لأن جبل ثور الذي يمثل الحد الشمالي للحرم يقع خلفه. محمد السيد الوكيل، مرجع سابق، ص١٥٣.

(٧١) يبدو أن الكاتب يبالغ بذكر أن تمور المدينة أفضل تمور العالم، إلا إذا كان يريد الإشارة إلى ما ورد في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: "من تصبح بسبع تمرات ما بين لابتيها - وفي رواية" من عجوة المدينة" - لم يضره يومه سم ولا سحر".

(٧٢) الطائف مدينة تاريخية عريقة، تبعد عن مكة نحو (٩٠ كم)، هواؤها طيب وماؤها عذب وأرضها خصبة، كانت مركزًا تجاريًا نشطًا في الجزيرة العربية قديمًا، وهي الآن مصيف، وبها عدد من المساجد العتيقة، أشهرها مسجد عبدالله بن العباس - رضي الله عنهما - ومسجد الكوع، ومسجد السنوسي.

(٧٣) العباس بن عبدالمطلب لم يدفن في الطائف، بل دفن في المدينة المنورة في مقبرة البقيع، وربما يقصد الكاتب ابنه عبدالله الذي عاش ودفن في الطائف. الخياري، تأريخ معالم المدينة المنورة قديمًا وحديثًا، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٩٩٩م، ص٣٥٢.

(٧٤) قول المؤلف بأن زيارة الطائف مساوية في الفضل زيارة المسجد النبوي غير صحيح. ولم يرد أي حديث يدعو لزيارتها.

(أو زيارة قبري في المدينة)"(٧٥). وفي الحقيقة أن حسنة هذا البديل تتمثل في أن المسافة بين الطائف ومكة تستغرق فقط ثلاث ليال مقابل اثنتي عشرة ليلة للوصول إلى المدينة. ويوجد حافز آخر في زيارة الطائف وهو أن طقسها أبرد من أي مكان آخر في الحجاز. وفي الحقيقة هي منتجع جبلي بالنسبة لمكة، وتُشبه كثيرًا في هذا الشأن سملا على طريق الهند.

وبعد الفراغ من موسم الحج وفي فترة شهور الصيف المحرقة يذهب وجهاء مكة وتجارها الأثرياء إلى الطائف. وبجانب أنها منتجع جبلي فهي أيضًا حديقة خضروات مكة، حيث يُزرع فيها الطماطم، والقرع، واليقطين، والجزر، والسبانخ، والبصل، من أجل الاستهلاك المحلي في مكة.

وربما لا يصح أن نطلق على الطائف مدينة؛ لأن فيها متاجر قليلة، أقل عددًا من المساكن الصيفية المشيَّدة في الحدائق، أو بالأحرى في حقول الكَرْم. وأحواش هذه المساكن الصيفية مملوءة بنبات الكَرْم الذي يختلج مع أشجار الرُّمان والشجيرات المزهرة. ولا حاجة أن نرسم لوحة لهذه الحدائق عندما يكون العنب ناضجًا والزهور متفتقة أكمامها، وأي شخص يمكن أن يُقدِّر ماذا يكون في مثل هذه الحدائق بعد رؤية الصخور والرمال في كل أرجاء القطر. وفي هذه الحدائق نلحظ أن البُرودة معززة بنهر من الماء العذب ينحدر مباشرة من الوسط. علمًا بأن الطائف ترتفع نحو أربعة آلاف وأربعمئة قدم فوق سطح البحر، فيمكن أن يرى الشخص أميالاً من مساحة القطر تحيط به، معطيةً إياه نوعًا من الشعور بالحرية فوق العديد من سلاسل الهضاب المتراصة. والمشهد من كل جوانب المنتجع الجبلي مشهد بهي رائع.

---

(٧٥) الحديث موضوع، ولا أثر له في كتب الحديث الصحاح.

هكذا هي الطائف في هيئتها المعهودة. بيد أن حاجنا الملايوي ليس مهتمًا بجمالياتها وطقسها المنعش، بل جاء لأداء شعيرة الحج فقط، لكن إذا حل موسم العنب والفاكهة الأخرى يكون هذا مجرد تزامن سعيد في مشروع متعدد الأغراض، حيث يستمتع الحاج الملايوي بهذه الثمار وأداء شعيرة الحج معًا. والسعادة من منظور الحاج الملايوي تقع بين أمرين، أولاً: أن يكون الإنسان شاكرًا لله سبحانه وتعالى عندما يمُن عليه برحمته ونعمائه التي يمكنه أن يستمتع بها. وثانيًا: أن يكون صابرًا عندما ينزل عليه ابتلاء.

والشيء الذي يهم الحاج في الطائف أساسًا هو قبر العباس(٧٦)، عم النبي ﷺ، ويوجد في مسجد الطائف أيضًا قبرا ابني رسول الله ﷺ، قاسم والطاهر(٧٧)، اللذين ماتا صغارًا.

ويستطيع الحاج أن يشاهد على أحد صخور الطائف المكان الذي صلى فيه الرسول ﷺ، طالبًا عون الله سبحانه وتعالى عندما طرده أهل الطائف في أيام دعوته الأولى. وفي مكان آخر وعلى صخرة أخرى يُعرض على الحاج المكان الذي استراح فيه النبي ﷺ بعد فترة طويلة من تبليغ مشركي الطائف آنذاك، وما يزال يوجد الأثر الذي يفترض أن الرسول ﷺ قد تركه عندما كان واضعًا يديه على الصخرة وساندًا جسمه المنبسط إليها. وكل هذه المواقع ومثيلاتها في أجزاء أخرى من القطر ذات قيمة معرفية فقط؛ لأنها صحيحة من الناحية التاريخية، ويوقرها الحاج الجاهل إلى حد يلامس أطراف التقديس، دون علم بأن الرسول ﷺ قد تعامل بحذر شديد، وحذر أصحابه من الاعتقاد في مثل هذه الممارسات.

تعامل الرسول ﷺ بحذر شديد، وحذر أصحابه من الاعتقاد في مثل هذه الممارسات

---

(٧٦) دفن العباس بن عبدالمطلب في مقبرة البقيع بالمدينة المنورة، وليس في الطائف كما تقدم التنبيه عليه.

(٧٧) ابنا الرسول ﷺ لم يدفنا في الطائف، بل دفنا في مكة المكرمة.

موكب المحمل في مكة

تشهد مكة فرحًا عظيمًا في بداية شهر ذي الحجة، وذلك لوصول المحمل الذي يُحضر مرتين في العام قبل أن يُطرد الأتراك من الحجاز، إحداهما من مصر، والأخرى من سوريا (الشام). ويُعرف المحمل الذي يُحضر من مصر بالنسبة للحاج الملايوي بـ "شُقدف فاطمة" والذي يُحضر من سوريا بـ "شُقدف النبي". وكترتيب معمول به منذ صدر الإسلام فإن مصر كانت ترسل سنويًا كسوة مقدسة من الحرير الأسود لتُكسى بها الكعبة، وتبعث سوريا الأدوية الطبيَّة التي يحتاج إليها الحجاج في موسم الحج. وبمرور الزمن أسس عدد من التجار الأثرياء في مصر وسوريا أنماطًا مختلفة من الأوقاف النقدية والعينية (مثل: الذرة وغيرها)، التي كانت تُرسل إلى الفقراء في مكة، والأوصياء على هذه الأوقاف كانوا يغتنمون الفرصة ويرسلونها سنويًا مع المحمل. وفي ذلك الزمن لم يكن السفر ميسورًا عن طريق السفن كما هي الحال الآن، فكان الحجاج يفضلون مرافقة محملهم المقدس، حفاظًا على أمنهم وسلامتهم. وبذلك أضحى موكب المحمل موكبًا مهيبًا تحت إشراف أمير الحج. وكما يُعرف في الوقت الحاضر فإن المحمل عند دخوله إلى مكة يُشهل بالموسيقا والإنشاد، ويُستقبل ببهجة مماثلة من المكيين. وبعد أن تُسلم الهدايا والأوقاف إلى مستحقيها يظل موكب المحمل في حالة طواف حول الكعبة طيلة أيام الحج المقدسة، وتصحبه المزامير والدفوف، ويرافقه أيضًا جنود الحجاز البواسل بفرقهم الموسيقية(٧٨). وبعد أن غادر الأتراك الحجاز، لسبب أو آخر أوقفت سوريا إرسال المحمل، وفي عام ١٩٢٣م أخذت مصر على عاتقها مسؤولية إرسال الأدوية الضرورية، إلا أن سوء الطالع دفع الملك حسين - حاكم الحجاز آنذاك - إلى رفض

---

(٧٨) هذا مما نهى عنه الإسلام، وعدَّه العلماء مخالفًا للشريعة؛ مما جعل الملك عبدالعزيز يمنعه.

هدية مصر، وعليه قامت مصر بإعادة الكسوة المقدسة(٧٩). وفي الوقت الحاضر ترسل مصر الكسوة المقدسة والأدوية إلى مكة(٨٠).

الوقوف على عرفات: إلحاح في الدعاء ورجاء في المغفرة

بعد أداء الحج الذي يتم بالوقوف على عرفة في التاسع من ذي الحجة يمكن أن يُطلق على ضيف الرحمن لقب "حاج"، والقاعدة المتعارفة بين الحجاج أن الذهاب إلى عرفة يبدأ في الخامس من ذي الحجة(٨١). وعرفة سهل واسع عند سفح جبل عرفات، ويعني الوقوف مجرد الحضور في هذا الموقع. وبالطبع توجد بعض الأدعية التي يرددها الحاج أثناء وجوده هناك، لكن السِرَّين العظيمين عن عرفة هما: أولاً - أن عرفة هي المكان الذي تقابل فيه الأب آدم والأم حواء للمرة الأولى بعد هبوطهما من جنة عدن، ثانيًا - هي المكان الذي سيجتمع فيه الناس يوم القيامة. والحاج لا يدري سواء كانت هذه الاعتقادات موثقة في القرآن وأحاديث الرسول ﷺ أم لا. وفي أثناء فترة إقامته يُعلم الحاج أن هناك أسرارًا دينية تتعارض صراحة مع تعاليم الرسول الذي أفصح أنه لا يوجد سر في الإسلام(٨٢). وبشأن

---

(٧٩) يقصد الكاتب الخلاف الأول الذي حدث عام ١٩٢٣م (١٣٤١هـ) في عهد الملك فؤاد الأول، ويعرف هذا الخلاف بخلاف البعثة الطبية، وفحواه أن الشريف حسين بن علي ملك الحجاز آنذاك اعترض على وجود بعثة طبية مرافقة للمحمل؛ لأجل ذلك منع دخولها في مكة المكرمة، مما أغضب رجال المحمل المصري، ودفعهم إلى الرجوع إلى مصر بكل ما يحملون من هدايا كانت تهدى سنويًا إلى الكعبة المشرفة وسدنتها، مثل: كسوة الكعبة المشرفة، وصرة المال المخصصة للإنفاق منها على المرتبات والصدقات على الفقراء في الحرمين الشريفين. أما السبب الذي يحتج به الحجازيون فهو توزيع البعثة المصرية لبعض المنشورات المناهضة لحكومة الشريف حسين، وتحذيرها للحجاج من شرب ماء زمزم الذي يتبرك به المسلمون في كل مكان. لمزيد من التفصيل حول هذا الحادث وإفرازاته السياسية انظر: إبراهيم حلمي، المحمل، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د. ت، ص٢٣٥-٢٤٢.

(٨٠) بعد دخول الملك عبدالعزيز مكة المكرمة أنشأ مصنعًا خاصًا بالكسوة تولى حياكتها وإعدادها، ولم تعد الكسوة القادمة من مصر تستقبل.

(٨١) هذا خطأ؛ لأن الذهاب إلى عرفة يكون في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة.

(٨٢) ليس صحيحًا أن هناك أسرارًا دينية تتعارض مع السنة.

الحديث عن موضوع هذه الأسرار يود الكاتب أن يوثق أسرارًا أخرى يذكرها المطوف للحاج البسيط الذي يرافقه، وهي: أن رفات آدم مدفون في مكان ما تحت الكعبة، وأن باب الجنة يقع تمامًا فوق باب الكعبة. ومن ثم يُحذر الحجاج من النظر إلى أعلى عند دخولهم الكعبة، وذلك خوفًا من رؤية "بورس"؛ لأنهم سيسحرون بجمالها، الشيء الذي ربما يُذهب عقولهم مدى الحياة. وأود أن أذكر حقيقة أخرى غير قابلة للشك، وهي أنه لا توجد أي حمامة من حمام المدينة (طيور فاطمة الأليفة) التي تجوب في كل أرجاء الحرم المكي تستطيع أن تحلق فوق الكعبة، وذلك احترازًا - كما يقال - من مدخل الجنة الذي يقع بين الكعبة والسماء(٨٣).

دعونا نعود إلى عرفات، حيث يتجمع كل الحجاج لحضور ليلة التاسع من ذي الحجة. وهم في زي الإحرام الذي ارتدوه عند مغادرة مكة، ويعيشون في خيام تُرى بالآلاف، ويوضع على كل خيمة علم خاص يعرفه فقط أعضاء المجموعة التابعون لمطوفين مختلفين. وفي هذا المقام لا يكون الحاج مشغولاً بإعداد طعامه؛ لأن القواعد المتعارف عليها هي أن المطوفين يجب أن يطعموا الحجاج في عرفة ومنى(٨٤) أيضًا. وفي منى يبقى الحجاج يومين أو ثلاثة. ولذلك يكون الحاج حرًا في توظيف كل وقته للعبادات الضرورية، وتكرار التلبية والدعاء بصفة مستمرة. وفي الساعة الثالثة ظهرًا يُضرب مدفع لإشعار الحجاج بأن خليفة رسول الله ﷺ سيلقي خطبة الحج على جبل عرفات المقدس، كما فعل الرسول ﷺ في فترة حياته. وهذه هي أهم مشاهد شعيرة الحج، كما فعل مؤسس الإسلام، ويفترض أن تكون

---

(٨٣) ما ذكره المؤلف هنا من أمور يمكن وصفها بأنها خرافات لا أساس لها من الصحة.

(٨٤) منى موقع بين مكة والمزدلفة، فيه مسجد الخيف، ومسجد الكبش، ومسجد البيعة، وفي واديه الجمرات الثلاث (العقبة، والوسطى، والصغرى). ويقضي فيه الحجاج نهار يوم النحر وأيام التشريق.

هذه الخطبة لتقييم سلوكيات المسلمين، وأخلاقياتهم، وتقدمهم السياسي الذي حققوه في السنة الماضية أسوة بإمامهم الروحي الرسول ﷺ وخلفائه من بعده، لكن الشيء المحزن، كما حدث في هذا اليوم، بأن ٩٠٪ من الحجاج لم يستمعوا للخطبة، ولم يعرفوا ما جاء فيها إلى أن أُعلنت إليهم نهاية الخطبة بإطلاق بعض الإشارات والعلامات النارية.

الطريق إلى مزدلفة ومنى

بعد غروب الشمس يبدأ الحجاج التحرك من عرفة إلى مكان يُعرف بمزدلفة(٨٥)، حيث يقضون الليلة هناك. وقبل أن يغادر الحاج مزدلفة يجب عليه أن يجمع عددًا من الحجارة الصغيرة لرجم الشيطان في منى، التي يصلها عادة في صباح اليوم العاشر من ذي الحجة. وفي هذا المكان ثلاثة أعمدة حجرية منصوبة على مسافة تقدر بثلاثمئة ياردة، ويجب على الحاج أن يرمي سبع حصيات في وقت واحد لكل جمرة على الأعمدة الحجرية الثلاثة، الواحدة تلو الأخرى، بدءًا بالعامود الحجري الأبعد من مكة، وانتهاءً بالأقرب إليها. وبعد الفراغ من هذه الشعيرة يجوز للحاج أن يتحلل من زي الإحرام، ويرتدي ثيابه العادية(٨٦). وهذا هو اليوم العاشر من ذي الحجة وعيد الحج الأكبر، حين يظهر الحجاج في أبهى حللهم، ويكون المطوفون مشغولين بتطويف الحجاج واحدًا تلو الآخر، واضعين على

---

(٨٥) هو واد يقع بين منى وعرفات، ويبعد عن المسجد الحرام نحو (٩كم) تقريبًا، ويبتدئ حيث ينتهي وادي منى، وفيه المشعر الحرام، ويصلي فيه الحجاج صلاتي المغرب والعشاء قصرًا وجمع تأخير عند قدومهم من عرفات ليلة النحر، ثم يأخذون منها الحصى؛ لرجم الجمرات الثلاث. ويختلف أهل العلم في سبب تسمية هذا الوادي مزدلفة، فيرجع بعضهم أصل الاسم لاجتماع الناس فيه قياسًا على قولهم: أزلفت الشيء إذا جمعته، ويرجعه بعضهم إلى نزول الناس به في زلف من الليل، وقيل: لازدلاف الناس من منى بعد الإفاضة.

(٨٦) هذا غير صحيح؛ لأن الرجم في اليوم العاشر يكون فقط لجمرة العقبة، والطريقة التي ذكرها لأيام التشريق. كما أن الرجم ليس للشيطان، بل هو اتباع لسنة إبراهيم عليه السلام.

رأس كل حاج عمامة ومربّتين على كتفه، وناعتين إياه بلقب "حاج". وهذا الاحتفال ضروري فقط؛ لأنه يدر على المطوف جنيهًا واحدًا عند تطويف كل حاج، والحاج البسيط سعيد بأنه قد أعطي اسمًا ذا موسيقة عربية بدلا عن اسمه القديم، الذي يكون في الغالب اسمًا لبعض الخضروات ومثيلاتها، مثل: كندور (شمام)، ولابو (قرع)، وبولات (كوسة)، وغيرها(٨٧). ويجب أن نسجل في هذا المقام أن عرفات تبعد نحو ستة عشر ميلاً من مكة، ومن مزدلفة نحو ثمانية أميال، ومن منى نحو أربعة أميال.

وسبق القول: إن الحاج يجب أن يقضي يومين أو ثلاثة في منى، ليرمي الجمرات الثلاث في يوم العاشر من ذي الحجة أو في يومي التشريق(٨٨)، ثم بعد ذلك يمكنه أن يعود إلى مكة. وفكرة رمي الجمرات سنة استنها إسماعيل عليه السلام(٨٩)، لأنه كان مُغرما بحصب الشيطان في تلك المواقع الثلاثة عندما كان مصاحبًا لأبيه إبراهيم، الذي نذر بذبحه قربانًا لله سبحانه وتعالى. فإبراهيم أمره الله سبحانه وتعالى أن يذبح ابنه الوحيد قربانًا إليه، وبالرغم من أنه لم يكن نادمًا أن يقطع عنق ابنه طاعة لأمر الله سبحانه وتعالى، إلا أنه كان متشككًا بعض الشيء: هل سيقبل الابن نفسه أن يُضحى به. وكان فرح إبراهيم عظيمًا عندما وجد ابنه ليس مُسَلِّمًا لإرادة الله سبحانه وتعالى فقط، بل محصَّنًا من إغراءات الشيطان. وتضاعف

---

(٨٧) قد أشار سنوك إلى عادة تغيير الأسماء، ووضح أن هذه المهمة كانت تتم على أيدي ثلاثة أشخاص، هم: مفتي الشافعية، وإمام الحرم الذي يتعلم الجاويون على يديه قراءة القرآن وتجويدها، ثم رئيس المؤذنين الذي يقوم بالأذان من فوق مقام الشافعي الذي يعلو بئر زمزم. لمزيد من التفصيل انظر: سنوك هورغرونية، ص٥٦٦-٥٦٩.

(٨٨) في يوم العاشر ترمى فقط جمرة العقبة، وبعدها يقوم الحاج بأداء طواف الإفاضة الذي يعد ركنًا من أركان الحج، يأتي به الحاج بعد إفاضته من عرفة ومزدلفة ورمي جمرة العقبة، وبعدها يحل له الحلق والتقصير.

(٨٩) الصحيح أنها سنة إبراهيم عليه السلام.

الفرح عندما خَلُص إبراهيم من ذبح ابنه كما ينبغي، لكنه وجد أنه قد ذبح كبشًا بدلاً عنه، لأن الله بفضل رحمته العظيمة قد وضع الحيوان مكان الابن. ولذلك فإن المسلم يضحي في هذا اليوم بكبش ليبيّن تسليمه لإرادة الله سبحانه وتعالى، التسليم الذي يمثل جوهرً عقيدة المسلم. وتُذبح الأضحية في العاشر من ذي الحجة عند سفح جبل يُعرف بـ "جبل القربان" في منى. وتُذبح آلاف من الأغنام في ذلك اليوم، وعلمًا بأن لحم الأغنام لا يعد جميعه صالحًا كطعام في الجزيرة العربية(٩٠)، فإن أمعاء (أو أحشاء) كل هذه الأغنام تُرمى في العراء ويدفن بعضها في حفر، وبذلك تترك للنسور تفعل فيها ما تشاء(٩١). وفي منى أيضا يُعرَّف الحاج على جبل مشهور بـ "جبل الكوفيَّة"، ويقصد بالكوفية الطاقية. ويقال: إن الرسول ﷺ ذات مرة كان مُختليًا في الغار الذي يوجد عند سفح هذا الجبل، وعندما وقف استعدادًا للذهاب إلى مكان آخر ضرب سقف الغار برأسه، لم تُحدث

---

(٩٠) هذا غير دقيق، ولم يعرف في الجزيرة العربية أن بعض أجزاء لحم الغنم غير صالحة للطعام سوى الأحشاء.

(٩١) يعلق العياشي حول ذبائح منى بقوله: "قد ذبح في منى ذلك اليوم والذي بعده من البقر والغنم ما أحسب الغني والفقير، وكفى الوارد والمستوطن، وامتلأت الطرقات وأفنية المنازل باللحم، وأما الجلد الساقط والأكارع فلا ترى أحدا يأخذها، بل بقي كثير من الغنم غير مسلوخ إلى أن ارتحل الناس من هناك، لم يمسه الناس، فمن الفقراء من يأخذ نحوًا من عشرة من الغنم، فيبيعون لحومها بأرخص ثمن، وييبسون ما قدروا عليه، ضيافة الله الذي لا يقدر أحد على كفاية خلقه سواه، فقد ورد من آفاق الأرض أصناف من الخلق لا تحصى، أغنياء وفقراء، فأكل الكل من ضيافة مالكهم، وتزودوا ما قدروا، وفضل ما أعجز الطير والوحش والهوام، فأقسم لقد مررت بهذا المكان بعد سنة أو قريبًا من ذلك في قفولي من الطائف فوجدت به عدة كثيرة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها وعظامها لم تُمس إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها". نقلاً عن: حمد الجاسر، المرجع السابق، ص٦٧. ونستخلص من قول العياشي والحاج عبدالماجد أن هذه العادة كانت سائدة لزمن طويل، لكن بحمد الله قد استطاعت المملكة العربية السعودية أن تقضي عليها، وذلك بتوظيف لحوم الأضاحي توظيفًا عمليًا يوافق مقتضى الشرع، ويسهم في توفير الاحتياطات الصحية اللازمة لسلامة الحجاج، ويقدم الطعام للمحتاجين في أرجاء المعمورة.

هذه الضربة كسرًا في رأسه فقط، بل أحدثت تجويفًا في السقف الحجري للغار بحجم رأس رسول الله ﷺ(٩٢).

وأثناء إقامة الحاج في منى كجزء من الشعائر الدينية يُلحظ أن المكان يعج ببهجة وسرور آخرين في كل مساء، حيث يوجد موكب من زعماء القبائل على جمالهم، ووجهاء الدولة على صهوات خيولهم مرافقين للملك الذي يتوسط الموكب، والجند البواسل مترجلون، والجميع يسير في حركة تضبطها أنغام الموسيقا العسكرية الخاصة بجيش الدولة وفرقة المحمل، وكل ذلك احتفاءً بقدوم المحمل من مصر وسوريا. وحتى زعماء القبائل لديهم فرقهم الخاصة التي تعزف أنغامًا موسيقية تُشبه أنغام مزامير القرب الإسكتلندية. ويقدم المشاة عرضًا لجنود الخيالة أمام الشريف في منى، والإعجاب الدافق يظهر على وجوه الحاضرين. والحصان العربي حصان ذائع الصيت في كل أرجاء العالم، ومُروِّضه العربي لا تنقصه السمعة كخيَّال ماهر. وحوالي الساعة الثامنة مساءً يُجرى عرض للألعاب النارية، ينتهي في منتصف الليل.

العودة إلى مكة وطواف الوداع

وفي اليوم الثالث الذي يوافق الثاني عشر من ذي الحجة، وبعد رمي الجمرات على الشيطان، كما أوضحنا سابقًا، يعود الحاج إلى مكة؛ لأداء طواف الوداع، والسعي، وحلق شعر الرأس كما سبق(٩٣)، وبذلك تكتمل مستلزمات الحج. ورُوي عن الرسول ﷺ أنه قال: "يصبح الحجاج بعد أداء فريضة الحج أحرارًا من الذنوب كمواليد جدد"(٩٤). ويوضح المفسرون معنى هذا الحديث بقولهم: "إن أداء

---

(٩٢) رواية خرافية غير صحيحة.

(٩٣) أغفل المؤلف هنا طواف الإفاضة، ولم يعتمد الترتيب الشرعي لهذه المشاعر.

(٩٤) يقرأ الحديث الوارد في كتب الصحاح كما يأتي: "من حج ولم يرفث ولم يفسق عاد كيوم ولدته أمه". انظر صحيح البخاري، ج٢، ص١٦٤، وصحيح مسلم، ج٤، ص١٠٧.

الحج يغفر كل الذنوب التي ارتكبها الحجاج في الماضي بشرط أن لا يقترفوها مرة أخرى". وحسب رأي بعض المفسرين المحدثين أن هناك نوعين من الحج، أحدهما حج مقبول(٩٥)، والآخر حج مردود. ويتمثل الأول في تحسن سلوك الحاج نحو الأفضل، والثاني في ترديه نحو الأسوأ.

رحلة العودة إلى أرض الوطن

لا يبقى للحاج بعد ذلك شيء يؤديه سوى أن يجهز نفسه لرحلة العودة. ويجب عليه أن يشتري عمامة وجلبابا، ليميز نفسه عن أولئك الذين لم يؤدوا فريضة الحج في بلده، وربما يحتاج إلى مسبحة (أو سبحة)، وقليل من ماء زمزم كهدايا لأقربائه وأصحابه في أرض الوطن، وربما يحضر إليهم أيضًا الأحجار الكريمة، وعيدان الأراك التي تستخدم في سواك الأسنان، والكحل، وعروق السحر؛ لأن لديها قيمة عظيمة وتقديرًا خاصًا في أوساط الملايويين. وبعد أداء طواف الوداع يستودع الحاج الأرض المقدسة بضمير صاف، وهو سعيد بأنه قد خدم الله حسب ما يقتضيه الطلب الخاص بأداء شعيرة الحج. وعند وصوله إلى قريته يُرحب به الترحيب الذي يليق بأي شخص قادمٍ من زيارة بيت الله، العظيم، الخالق، المنشئ، الرازق للعالم كله.

وهكذا تتبعنا الحاج في سياحاته، وقرأنا المشاق التي واجهته، وتتبعنا الأماكن التي زارها، والواجبات التي أداها، والأدعية التي دعاها، ولماذا فعل ذلك؟ وأمطنا اللثام عن الدروس والعبر التي تعلمها. وعليه دعونا نوضح ونثمن ما يفكر فيه الحاج بصورة مجملة. فيما يخص الجانب المالي، فهو ينفق بسخاء من مدخرات حياته، ويضحي بكل النعم التي وهبها إياه الوطن، ويصرفها دون اكتراث

---

(٩٥) يقصد بالحج المقبول الحج المبرور الذي قال عنه رسول الله ﷺ: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة". صحيح مسلم، ج٤، ص١٠٧.

لفقر ذلك الوطن. وربما يكون الحاج قد أرهق بنيته الجسمانية بالطعام الغريب والطقس الذي لم يألفه من قبل.

وفيما يخص صحة الحاج فإن عام ١٩٢٤م كان أسوأ عام بالنسبة للحجاج الملايويين؛ لأن معدل الوفيات في أوساط الذين سُجلوا في القنصلية البريطانية بجُدَّة قد بلغ ١٥٪ خلال ستة أشهر(٩٦). ورغما عن ذلك فإن كل حاج يؤكد لك بإيمان صادق أنه سيعود بسعادة لأداء فريضة الحج للمرة الثانية إذا تيسرت له الوسائل، متحملاً كل ما يواجهه من مشاق وحرمان. إذا ما الحافز الذي يمد الحاج بهذا الدافع القوي ليضحي بكل ممتلكاته الدنيوية، وهناءته وسعادته في ربوع وطنه، وحتى بحياته نفسها؟ يجب أن يعترف الكاتب بأنه لا يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال بخلاف هذه الكلمات القليلة: "سيفهم ذلك المسلم الراسخ الاعتقاد في الإسلام فقط".

---

(٩٦) يعطي تقريرِ القنصلية البريطانية في جُدَّة لعام ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م قراءة إحصائية تختلف قليلاً عمَّا ذكره الحاج عبدالماجد، ويفيد التقرير أن عدد الوفيات من الحجاج الملايويين المسجلين بالقنصلية قد بلغ ١٧٪، أي حوالي ٤٥٠ من ٣٣١٧ حاجًا، وذلك خلال فترة ستة أشهر فقط. لمزيد من التفصيل انظر:

Records of the Hajj: A Documentary History of the Pilgrimage to Mecca, The Hashimite Period 1916-1925, vol. 5, London: Archive Editions, 1993, P. 592.

ويتضح من هذا التقرير ذلك التغيير الذي طرأ على الحج والأماكن المقدسة بعد دخول الملك عبدالعزيز - رحمه الله - مكة المكرمة سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، حيث تحسنت الأمور، وتطورت الرعاية الصحية، وانتشر الأمن، واتسعت الخدمات، وأصبح الحجاج يؤدون مناسكهم في يسر وطمأنينة وعافية.